رهائن الصرعات الخارجية في عصر الخلافة (٣١٦-٤٢٢ هـ/ ٩٢٨- ١٠٣٠م)

رهائن للسيطرة على بلاد المغرب

كان قيام الدولة الفاطمية في المغرب نذيراً بقيام صراع (مذهبي سياسي) عنيف بين الطرفين، فالفاطميون كانوا ينظرون إلى الحكم الأموي في الأندلس على إنه امتداد لخلافة دمشق بذكرياتها البغيضة والمأساوية لهم، ولم يشعر الأمويون بالراحة والاستقرار منذ قيام دولتهم في المغرب، ومع ذلك فالأمويون وقفوا أثناء حدوث ذلك موقف المراقب المتوجس منهم، فهم لا يستطيعون التدخل وأقسام كبيرة من بلادهم متمردة عليهم لاسيما الأقسام الجنوبية المواجهة للفاطميين التي كان يسيطر عليها عمر بن حفصون الذي وجد في الفاطميين خير عضيد له فكان يستمدهم في أوقات الأزمات فيمدونه بالأموال والمساعدات(٨٠).

لذا كان على عبد الرحمن الناصر أن يقضي على أعدائه في الداخل كابن حفصون فبعث سنة (٣٠٢هـ/٩١٤م) حملة إلى الجزيرة الخضراء فضبط البحر وأحرق سفن بن حفصون ومنعه من البحر"(٨١) ووزع الخليفة عبد الرحمن الناصر أساطيله على السواحل الجنوبية والجنوبية

(٨٠) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ١٦٥؛ أحمد بدر: تاريخ الأندلس، ص٨٦.
(٨١) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٨٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ١٦٥. السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ١٧٢.

الشرقية من الأندلس حتى يمنع وصول الإمدادات من القيروان إليه، وأحبط الأسطول الأندلسي محاولات الفاطميين دعم حركة عمر بن حفصون (٨٢).

ولمواجهة الخطر الفاطمي أيضا أقدم عبد الرحمن الناصر على إعلان الخلافة في الأندلس لتكون أسلحة الطرفين متكافئة وذلك سنة (٣١٦هـ/٩٢٨م) (٨٣)، فدعم بهذا مركزه داخل الأندلس وخارجها وفرض هيبته في نفوس أهل الأندلس حتى لا يتأثروا بالدعوة الفاطمية، ثم حاول الناصر نقل معركته مع الفاطميين إلى عمق أراضيهم ليحتفظ ببلاده بعيدا عن التطاحن الحربي فعمد إلى اجتذاب بعض قبائل المغرب إلى جانبه من خلال الترحيب بالأمراء الذين أطاح بهم الفاطميون، وفي ذلك يقول صاحب كتاب مفاخر البربر (وتخطاهم عبد الرحمن إلى من سكن خلفهم من زعماء قبائل البربر يستألفهم ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم ممدا لمن عجز برجاله مقويا لمن ضعف بماله ومتعهدا بوجوه رسله وخواصه إلى أن تميز أكثر بوادي زناتة في حزبه وارتسموا بطاعته) (٨٤).

كان من بين أولئك أبناء سعيد بن صالح(٨٥) أمراء نكور(٨٦) الذين تغلب عليهم الفاطميون ودخلوا عاصمتهم سنة (٣٠٥هـ/٩١٧م) وقتلوا أميرهم سعيد بن صالح فلجأ أولاده الثلاثة

(٨٢) ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص١٧٣؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ٤٢٢.
(٨٣) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص٢٤١، ٢٤٢؛ ابن عذارى: البيان ج٢،ص١٩٨.
(٨٤) مؤلف مجهول: مفاخر البربر، ص ٩٤ .
(٨٥) سعيد بن صالح: هو سعيد بن صالح بن سعيد بن إدريس صاحب مدينة (نكور) تولي الامارة بعد وفاة أبيه سنة (٢٥٠-٣٠٥هـ/ ٨٦٤- ٩١٧) وأراد العبيديون إدخاله في شيعتهم فأبى، وكتب عبيدالله المهدي إلى (مصالة بن حبوس) عاملة بتاهرت يأمره بمحاربة سعيد فنازل مصالة مدينة نكور ودخلها (٣٠٥هـ/ ٩١٧م) واستباح عسكر سعيد وقتله. ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص١٧٨، ١٧٩؛ الزركلي: الأعلام، ج٣، ص ٩٦ .
(٨٦) إمارة نكور: قام بتأسيسها قائد يمني يعرف بصالح بن منصور الحميري (العبد الصالح) دخل المغرب مع جيوش الفتح العربية وأفتتح منطقة (نكور) الواقعة في الريف المغربي وهي بينها وبين البحر نحو عشرة أميال، ثم استقر بها بعد أن أقطعه إياها الخليفة الوليد بن عبد الملك، وقد أسلم على يديه العديد من البربر ونصبوه حاكماً عليهاثم خلفه ابناؤه من بعده على حكمها مدينة بالمغرب بقرب مدينة مليلة، وهي مدينة كبيرة. ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص ١٧٦؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص ٢٨٣؛ الحميرى: الروض المعطار، ص ٥٧٦.

(صالح والمعتصم وإدريس) إلى الأندلس ونزلوا بجزيرة مالقة وقد رحب عبد الرحمن الناصر بهم وأمر بإكرامهم وأغدق عليهم العطايا وخيرهم بين البقاء في مالقة أو المقام في العاصمة قرطبة ففضلوا البقاء في مالقة لقربها من ممتلكاتهم وليتثنى لهم مراقبة تطورات الأحداث واغتنام الفرصة لإعادة ملكهم، وانتزاعه من أيدي الفاطميين وقد حصل لهم ذلك ونجحوا في استعادة ملكهم، فكتب صالح إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر بما تم له من نصر على أعدائه فأمر الناصر بقراءة الخبر على منبر قرطبة، وأرسلت نسخ منه على كافة أقاليم الأندلس وأمر بإرسال الهدايا والتحف والألبسة(٨٧).

وقد وجد الناصر ضالته في قبيلة زناته التي حملت لواء مقاومة النفوذ الفاطمي، ومنذ البدء كان دافعها إلى ذلك العصبية القبلية فهم على عداوة لقبائل البرانس الموالية للفاطميين، والذي زاد من عداوة قبيلة زناته للفاطميين بعد استيلاء أبي عبد الله الداعي على مدينة تاهرت عاصمة الرستميين سنة (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) وشعروا بوطأة السلطان الفاطمي عليهم، لذا وجد الخليفة الناصر في هذه القبيلة السلاح الذي يستخدمه ضد الفاطميين، كما أن الزناتيين وجدوا في الناصر الحليف القوي الذي يعتمدون عليه أثناء مواجهتهم للفاطميين(٨٨)، فأعلن زعيمهم محمد بن خزر الدعوة للأمويين في كل مراكز المغرب الأوسط ماعدا تاهرت(٨٩) التي بقيت فاطمية(٩٠).

(٨٧) البكرى: المغرب، ص ٩٦، ٩٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص١٧٩، ١٨٠.

(٨٨) كان لبني خزر مكانة خاصة لدي أمراء بني أمية إذ أن جد محمد بن خزر بن صولات بن وزمار كبير مغراوة قد أسر أثناء الفتح فبعث إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ فأسلم على يديه وولاه على قومه، وقيل أن صولات هاجر من تلقاء نفسه إلى الخليفة عثمان فأكرمه وولاه على قومه فأختص صولات وسائر مغراوة بولاء الخليفة عثمان ﷺ، وأهل بيته من بني أمية. ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٢٥٧؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص ١٧٨؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٨٧.

(٨٩) تاهَرْت: بفتح الهاء وسكون الراء وتاء فوقها نقطتان، وهي مدينة من مدن المغرب الأوسط قريبة من تلمسان كانت عاصمة لبني رستم الخوارج الإباضية. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٢، ص ٤٧؛ الحميرى: الروض المعطار، ص١٢٦.

(٩٠) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٢٦٠؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص١٧١.

أدرك الخليفة الفاطمي المهدي [٩١] خطورة هذا التحالف بين الأمويين والزناتيين فأمر قائده مصالة بن حبوس المكناسي [٩٢] صاحب تاهرت بالخروج بقواته إلى قبائل زناته سنة (٣١٢هـ/٩٢٤م) للقضاء على تحركات هذه القبيلة التي ما انفكت تحارب النفوذ الفاطمي، فأصطدم مصالة بقوات بن خزر الزناتي في معركة كانت نتيجتها وبالا على الفاطميين فقد هزمت قواتهم وقتل قائدهم مصالة وذلك في شعبان في سنة (٣١٢هـ/٩٢٤م) [٩٣]، فاستثمر بن خزر هذا النصر ليوسع نفوذه نحو مناطق عديدة في تاهرت [٩٤].

شجعت هذه الانتصارات الخليفة الناصر على الاستيلاء على مدينة مليلة [٩٥] سنة (٣١٤هـ/٩٢٦م) وحصن أسوارها [٩٦]، وقام محمد بن خزر بفتح مدينتي شلف وتنس [٩٧] سنة (٣١٧هـ/٩٢٩م) وأقام فيهما الدعوة للخليفة عبد الرحمن الناصر وكان العامل بمدينة

(٩١) الخليفة عبيد الله المهدى: هو عبيد الله أبو محمد الخليفة الشيعي مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة سنة (٢٦٠هـ/ ٨٧٣م) واختبأ في بلدة سلمَّية بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام، ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سلميَّة كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن ميمون القداح، وفي منطقة سَلَمَّية مقر الإسماعيلية مات على بن حسن بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، فقرر الإسماعيلية نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إليه. السيوطى: العرف الوردي في أخبار المهدي، تحقيق موسي إسماعيل البسيط، حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعلية، توفي سنة (٣٢٢هـ/ ٩٣٣م)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة١٩٤٧، ص٧٧ -٧٩.

(٩٢) مصالة بن حبوس المكناسى: كانت له رياسة قبيلة مكناسة، وعظم أمرها في أيامه فتغلبت على قبائل البربر ولما استولي (عبيد الله المهدى) على المغرب، كان مصالة من أكبر قواده، وولاه المهدي على مدينة تاهرت والمغرب الاوسط، وزحف مصالة إلى المغرب الاقصي سنة (٣٠٥هـ/ ٩١٧م) واستولي على فاس وعلي سجلماسة قتله محمد بن خزر الزناتي سنة (٣١٢هـ/ ٩٢٤م). ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص ١٨٩؛ ابن خلدون: تاريخه، ج ٦، ص ١٧٦؛ الزركلى: الأعلام، ج٧، ص ٢٢٧.

(٩٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص ١٨٩؛ محمد بن على بن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، تحقيق التهامي نقرة , عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة ١٤٠١، ص ٤٥.

(٩٤) ابن عذارى: البيان المغرب،ج١، ص٢٦٩؛ السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، الدار القومية للطباعة، القاهرة ١٩٦٦م، ج٢، ص٦١٢.

(٩٥) مليلة: تقع شرقي مدينة طنجة، وهي قريبة من نهر ملوية بالمغرب، وهي مسورة بسور حجارة، وداخلها قصبة مانعة وهي مدينة قديمة، و أن عبد الرحمن الناصر لدين الله افتتحها(٣١٤هـ/٩٢٦م)، وبني سورها معقلاً لموسي بن أبي العافية. البكرى: المغرب، ص ٨٩؛ الحميرى: الروض المعطار، ص٥٤٥.

(٩٦) البكرى: المغرب، ص ٨٩، ٩٠؛ السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص٤١٢.

(٩٧) مدينة تنس: بفتحتين والتخفيف والسين مهملة، وهي آخر إفريقية مما يلي المغرب بينها وبين وهران ثماني مراحل، وتقع بالقرب من مليانة و بينها وبين البحر ميلان، وتسمي تنس الحديثة، يذكرها بن حيان في المقتبس باسم " تيس" والأصح أنها مدينة تنس وذلك لأن مدينة شلف تقع بالقرب من مدينة مليانة وكذلك مدينة تنس. ابن حيان: المقتبس، ص ٢٦٠؛ البكرى: المغرب، ص ٦١؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٢، ص٤٨.

شلف لما أحس بدنو الخير بن محمد منه هرب في الليل إلى مدينة تاهرت، فصالحه أهل البلد على أنفسهم واتقوه بالطاعة فتقبل منهم وأخذ رهائنهم فأنفذهم إلى والده محمد بن خزر، أما أهل تيس قتلوا عاملهم الشيعي وأرسلوا برأسه إلى الخير واتقوه بالطاعة فقبلهم وأخذ رهنهم وأمنهم (٩٨).

واتخذت رهائن من مدينتي شلف وتيس وذلك لتثبيت الدعوة لبني أمية في شمال إفريقية ولكي يظل أهل هذه البلاد على ولائهم فلا يستطيعون مولاة الفاطميين، فكانت سياسة اتخاذ الرهائن ليتم إحكام السيطرة على تلك البلاد فلا تستطيع الخروج والثورة.

واستولى الخليفة عبد الرحمن الناصر على مدينة سبتة سلماً سنة (٣١٩هـ/٩٣١م) (٩٩) واستعمل عليها قائده فرج بن غفير (١٠٠)، كان الناصر حريصاً على تحصين مدينة سبته ووضع حامية عسكرية فيها، وأختارهم من خيرة قادته وجنده نظراً لموقعها الإستراتيجي المهم، يقول عنها المقري: " وكانت سبتة مطمح همم ملوك العدوتين وقد كان للناصر المرواني صاحب الأندلس عناية واهتم بدخولها في إيالته حتى حصل له ذلك ومنها ملك المغرب "(١٠١).

وذلك في الوقت الذي كان فيه محمد بن خزر أمير زناتة يفتح المدن باسم الخليفة عبد الرحمن الناصر ويأخذ رهائنهم كدليل على الطاعة (١٠٢)، حيث يذكر ابن حيان على لسان محمد بن خزر: " فحشدنا جميع القبائل التي بإزائنا وكل من اعتصم بطاعتنا وتمسك بأسبابنا، فأخذنا رهائنهم بالمبايعة لك والافتتاح باسمك والخطبة في جميع أهل الساحل إليك، وأقبل الناس إلينا

(٩٨) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٢٦٠، ٢٦١.
(٩٩) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٢٨٨، ٢٨٩.
(١٠٠) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٢٩٩.
(١٠١) المقري: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفي السقا وآخرون، القاهرة١٩٣٩، ج٢، ص ٢٥٧.
(١٠٢) وثيقة تثبت اتخاذ الرهائن للسيطرة على بلاد المغرب. انظر ملاحق الرسالة، ص٣١٩ ـ ٣٢٢.

من كل جهة فزعين مرعوبين خائفين على أنفسهم طالبين تسكين دهمائهم وحقن دمائهم "(١٠٣).

ونجد أن محمد بن خزر يتخذ الرهائن من أهل هذه البلاد الذين سارعوا بتقديمها كدليل على الطاعة وفي مقابل حفظ دمائهم.

كان من الطبيعي أن يسعي الناصر بعد ذلك إلى التطلع نحو طنجة ثاني أهم مدن المغرب الأقصى التي كانت تحت سيطرة الأدارسة من أل محمد وزعيمهم أبي العيش(١٠٤) الذي انتظم في سلك الدعوة الأموية وسار من جملة أتباع الناصر، فطلب منه الخليفة التخلي عن مدينة طنجة(١٠٥)، كما حاول الناصر سنة (٣٢٠هـ/٩٣٢م) احتلال موقع مهم بالقرب من سواحل تلمسان في المغرب الأوسط وهو جزيرة أرشقول(١٠٦) وهي جزيرة منيعة كانت من أملاك الأدارسة فحاصرها الأسطول الأندلسي مدة طويلة لكنه لم يستطع السيطرة عليها(١٠٧)، كما استطاع الناصر كسب زعيم قبلي آخر وهو موسي بن أبي العافية(١٠٨) زعيم قبيلة مكناسة الذي كان من أكبر قادة الفاطميين في المغرب الأقصى، خاطبه الناصر للقيام بدعوته وبذل له

(١٠٣) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٣٠٢.
(١٠٤) أبو العيش: هو أحمد بن القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس، تولي الحكم بعد وفاة أبيه كنون سنة (٣٣٧هـ/ ٩٤٨م) كان فقيها ورعا، أقام دعوة الأمويين، خرج مجاهدا إلى أرض الأندلس تاركا الحكم لأخيه الحسن وتوفي شهيدا سنة (٣٤٨هـ/٩٥٩م). ابن خلدون: تاريخه، ج٦،٢٩٠، ٢٩١ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥١، ٢٥٢.
(١٠٥) السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥٢؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٢٥، ٤٢٦.
(١٠٦) جزيرة أرشقول: هي قريبة من ساحل مدينة تلمسان من أرض المغرب. البكرى: المغرب، ص ٧٧.
(١٠٧) البكرى: المغرب، ص ٤٧٧؛ عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج٢، ص ٦١٢.
(١٠٨) موسي بن أبي العافية: هو موسي بن أبي العافية بن أبي يسال ابن أبي الضحاك المكناسي أمير مكناسة، عقد له ابن عمه مصالة بن حبوس على سائر ضواحي المغرب وأمصاره (سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م)، وأقره الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي الفاطمي عليه ثم ضم إليه مدينة فاس سنة (٣١٣هـ/ ٩٢٥م) وصار في ملكه (سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م) من أحواز تيهرت إلى السوس الاقصى، وملك تلمسان سنة (٣١٩هـ/ ٩٣١م) وانتظم في ملكه المغرب الاقصي والاوسط وأقام في العدوة الغربية، ونقض دعوة المهدي الفاطمي (في هذه السنة) وخطب للخليفة عبد الرحمن الناصر، فسير إليه المهدي من يقاتله، فظلت الحرب سجالا إلى أن قتل سنة (٣٤١هـ/ ٩٥٢م). ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص ١٧٦-١٧٩؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٤٦؛ الزركلى: الأعلام، ج٧، ص٣٢٣، ٣٢٤.

الأموال الكثيرة فأجابه لذلك فنقض طاعة الفاطميين وخطب للناصر على منابر عمله سنة (٣١٩هـ/٩٣١م) [١٠٩].

كان ذلك حافزا لعبيد الله المهدي ليبعث بقائده حميد بن يصل المكناسي[١١٠] صاحب تاهرت في عشرة ألاف مقاتل إلى موسي بن أبي العافية فالتقي الطرفان فكانت بينهم حرب ضروس انجلت عن هزيمة بن أبي العافية وفراره إلى قاعدته في تسول[١١١]، فتقدم حميد إلى فاس فلما أتصل الخبر بمدين بن موسي واليها هرب عنها لأحقا بأبيه في تسول فدخلها حميد بن يصل واستعمل عليها أحد رجاله ويدعى حامد بن حمدان الهمذاني، ثم قفل راجعا إلى إفريقية سنة (٣٢١هـ/ ٩٣٣م)، لكن حكم الهمذاني لفاس لم يدم فقد ثار عليه أحد أتباع بن أبي العافية المسمى أحمد بن بكر بن عبد الرحمن الجذامي وقتل الهمذاني وبعث برأسه إلى موسي الذي بعثه بدوره إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة، وتقدم موسي إلى فاس وأعاد الدعوة فيها للمروانيين [١١٢].

وفي سنة (٣٢١هـ/ ٩٣٣م) أرسل إبراهيم بن العلاء وعلوان بن سواقة، وجماعة من أهل مدينة أصيلا رسالة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر يؤكدون له فيها أمر طاعتهم، ويذكرون له مدي أهمية مدينتهم أصيلا من حيث إشرافها على ساحل البحر وكونها باباً مشرعاً إلى الأندلس، فعندما علم الأدارسة بانضمام مدينة أصيلا إلى عبد الرحمن الناصر، ساروا بجمعهم بغية الاستيلاء عليها فقاتلهم أهل أصيلا وانتصروا عليهم ثم سارعوا إلى مولاة موسي أبو العافية

(١٠٩) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص٢٠١؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٤٤.
(١١٠) هو ابن أخ القائد مصالة مصالة بن حبوس الذي تولي حكم تاهرت بعد وفاة أبيه، يصل بن حبوس سنة (٣١٩ هـ/٩٣١م) بعهد من عبيد الله المهدى. ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص ٢٨٩.
(١١١) تسول: مدينة بالمغرب الأقصى وتسمي بعين إسحاق، تحتوي على جامع وأسواق وعين عذبة، بينها وبين مدينة وفاس أربع مراحل. البكرى: المغرب، ص ١٤٢.
(١١٢) السلاوى: الإستقصا، ج١، ص٢٤٤ - ٢٤٦.

وطلبوا من الخليفة عبد الرحمن الناصر إرسال قوة إليهم، فأمر محمد بن أصبغ عامل مدينة سبتة بإرسال القوة إليهم(١١٣).

في سنة (٣٢٢هـ/ ٩٣٣م) خرج أمير مدينة أصيلا عن الطاعة بعد أن قدمها أهلها فأغزي الخليفة عبد الرحمن الناصر قائده عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة الزي نزل أصيلا، فخافه أهلها وأسرعوا إلى تقديم الطاعة وأخذ رهائنهم ليستوثق من طاعتهم، واستعمل عليهم رجلاً من أهلها البربر، وهو إبراهيم بن العلاء وكان صحيح الولاية للخليفة الناصر وخلف معه جمعاً من الحشم والرماة (١١٤).

فأخذ عبد الملك بن سعيد قائد الخليفة عبد الرحمن الناصر رهائن من أهل مدينة أصيلا وذلك لكي يضمن طاعتهم وعدم خروجهم مرة أخرى.

وذلك في الوقت الذي كان الفاطميون فيه مشغولين بوفاة عبيد الله المهدي وتنصيب ابنه أبي القاسم محمد القائم بأمر الله(١١٥) خليفة جديدا سنة(٣٢٢-٣٣٤هـ/ ٩٣٣- ٩٤٥م)(١١٦)، فرأي الخليفة الجديد أن نفوذ الفاطميين في المغرب لاسيما الأقصى قد تزعزع كثيرا لذلك أوعز إلى قائده ومملوكه ميسور الفتي بالتجهز بالعدة والتوجه لمحاربة أشياع الأمويين فيه سار ميسور من إفريقية سنة(٣٢٣هـ/ ٩٣٤م)، فانتهي إلى فاس التي اضطربت أحوالها كثيرا بعد سيطرة ابن أبي العافية عليها فاستطاع ميسور بالتعاون مع بقايا الأدارسة أن يهزم بن أبي

(١١٣) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٣٢٥، ٣٢٦.
(١١٤) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٣٤٧.
(١١٥) القائم بأمر الله: هو القائم بأمر الله الفاطمي محمد بن عبيد الله ويدعى محمد أبو القاسم نزارا، ولد في بلدة سلمية سنة (٢٧٨هـ/ , بويع له بخلافة (٣٢٢هـ / ٩٣٤م) وكان مهيبًا شجاعًا قليل الخير، وتوفي سنة (٣٣٤هـ / ٩٤٥م). ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص٢١٠؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤، ص ٤٦؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة١٩٥٢، ص ٤٥٠.
(١١٦) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص ٢٠٨؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٥١.

العافية ويأسر ابنه البوري ويرسله إلى المهدية ثم لم يلبث أن عاد هو أيضاً من غزوته مظفرا(١١٧).

لقد أتاحت الظروف السياسية المضطربة التي مرت بها الدولة الفاطمية أواخر عهد الخليفة القائم للأمويين استعادة نفوذهم الذي فقدوه بعد حملة ميسور فقد حدث أن انتشرت ثورة الإباضية النكارية(١١٨) في العديد من مدن المغرب، هذه الثورة التي كانت بقيادة الزعيم أبي يزيد الخارجي(١١٩) واستطاع السيطرة على معظم مدن المغرب التابعة للفاطميين، ووصل خطره حدا بحيث حاصر الخليفة القائم في المهدية حتى توفي في رمضان سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م)(١٢٠) وإزاء ذلك لم يتردد الخليفة الناصر عن تأييد هذه الثورة وإمدادها بالمساعدات التي كان يطلبها أبو يزيد مقابل اعترافه بالسيادة الأموية على المناطق التي سيطر عليه من خلال السفارات التي بعثها أبو يزيد إلى الناصر(١٢١).

لقد أسهمت هذه الثورة في أن يستعيد أتباع الناصر في المغرب نشاطهم فقد تقدم محمد بن خزر الزناني نحو أراضي جديدة وضمها إلى مناطق نفوذه كما ساعدت هذه الثورة التي كانت سببا في ضعف الفاطميين على انضمام البربر إلى الأمويين مثل يعلي بن محمد اليفرني (١٢٢)، ولكن

(١١٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص٩٩؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٥١، ٥٢.

(١١٨) النكارية: فرقة من الإباضية الخوارج سموا نكارا لأنهم أنكروا إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ثاني أئمة الدولة الرستمية، الذي تولي الحكم سنة (١٧١هـ/ ٧٨٧م) وكان يتزعم هذه الفرقة يزيد بن فندين. ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٥٢.

(١١٩) أبو يزيد الخارجي: هو يزيد مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث الزناتي ثائر من زعماء الإباضية في المغرب كان يغلب عليه الزهد والتقشف، ولد ونشأ في قسطيلة، وسافر إلى تاصرت فكان معلماً للصبيان فيهاوأنتقل إلى تقيوس ولما مات عبيد الله المهدي خرج أتباعه سنة (٣٢٢هـ/ ٩٣٣م) بناحية جبل أوراس وعظم أمره وأمتلك رقادة والقيروان وسوسه ثم هزمه المنصور فمات متأثراً بجراحه. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص١٨٨، ١٨٩؛ ابن خلكان وفيات الأعيان، ج١، ص ٧٧؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٥٢- ٥٤ .

(١٢٠) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص ١٨٩؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٥٢- ٥٤ .

(١٢١) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٢١٢، ٢١٣.

(١٢٢) يعلي بن محمد اليفرني: هو يعلي بن محمد بن صالح اليفرني أمير من أشراف البربر من أهل " تاكرونة " كانت له مدينة " آفكان " في إفريقية، ابتدأ بتأسيسها سنة (٣٣٨ هـ/ ٩٤٩م). وفي هذه السنة دخل " وهران " وملكها. واستمر في إمارته إلى أن

ثورة أبي يزيد تم القضاء عليها من الخليفة المنصور بالله بن القائم سنة (٣٣٤- ٣٤١هـ/٩٤٥-٩٥٢م) [١٢٣].

وعندما تولي الحكم المستنصر الخلافة سنة (٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م) كان النفوذ الأموي ضعيفاً في المغرب، وذلك بعد حملة جوهر الصقلي على المغرب الأقصى، فاقتصر سلطانهم على قاعدتهم الحصينة سبتة، فأراد الحكم توطيد الحكم الأموي في المغرب، فأمر سنة (٣٥١هـ/ ٩٦٢م) بترميم سور سبتة ثم عاد وأمر سنة (٣٥٣هـ/ ٩٦٤م) بإسقاط جميع المغارم والضرائب على أهالي مدينة سبته، وبذلك اكتسب محبتهم [١٢٤].

لقد حصل الأمويون على فرصة ذهبية لتثبيت نفوذهم في المغرب بعد نجاح الجيوش الفاطمية في الاستيلاء على مصر سنة (٣٥٨هـ/٩٦٨م)[١٢٥]، فلم يعد للصراع مع الفاطميين ذلك الطابع العسكري المهدد لنفوذ الأموي في المغرب بعد أن أصبح المغرب مجرد ولاية من ولايات الدولة الفاطمية لا قاعدة لها[١٢٦] وأصبح صراعها العقائدي والسياسي مع الدولة العباسية، وخف اهتمام الفاطميين بالمغرب، وأصبح المجال أوسع للأمويين لتوطيد نفوذهم[١٢٧]، واستفاد الأمويون من النزاع الذي حدث بين الزعماء المغاربة الموالين للفاطميين على نيابة الفاطميين في حكم المغرب فقد كان لقيام المعز الفاطمي بتسليم حكم

قتله الصقلي غدرا سنة (٣٤٧هـ/ ٩٥٨م). ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص٥٩؛ السلاوى: الإستقصا، ج١ ص ٢٥٤؛ الزركلى: الأعلام، ج٨، ص ٢٤٠.

(١٢٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٢١٥. ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٥٩.

(١٢٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص ٣٢٤.

(١٢٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص ٣٠٩؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٦١.

(١٢٦) بدر: تاريخ الأندلس، ص ٩٣.

(١٢٧) بيضون: الدولة العربية، ص ٣٢١.

المغرب إلى زيري بن مناد الصنهاجي[١٢٨] أثاراً سيئة في نفس جعفر بن على الأندلسي[١٢٩] الذي تفاني هو وعائلته في خدمة الفاطميين فحقد جعفر على الفاطميين والصنهاجيين معا وكان زيري الصنهاجي يحس بالحقد والضغينة اللتين يكنهما جعفر له فبدأ يستفزه بأعماله العدوانية فكان يعمدن إلى مهاجمة القبائل المغربية التي تسكن بالقرب من المسيلة[١٣٠] الداخلة في ذمة جعفر بن الأندلسي ووصل حقد زيري حدا أن اتهم ابن الأندلسي لدي محمد بن الخير بن خزر الزناتي ضد الفاطميين وكان سببا في قيام المعز الفاطمي باستدعاء ابن الأندلسي إليه[١٣١].

أثار إلحاح المعز على بن الأندلسي بالقدوم إليه مخاوف جعفر من الغدر به فتظاهر بالإذعان له، وخرج من المسيلة سنة (٣٦٠هـ/٩٧٠م) مع أهله ومواليه ولكنه بدلا من أن يتوجه نحو المعز في إلى قبائل زناتة خالعا طاعة الفاطميين، ولما بلغ الخبر إلى زيري الصنهاجي بادر بالخروج مسرعاً لقتاله بقوات قليلة لأن معظم قواته كانت مع ابنه بلكين في قاصية الغرب، فالتقي بجعفر وجموع الزناتيين سنة (٣٦٠هـ/٩٧٠م) لكن جعفر استطاع التغلب على قوات صنهاجة

(١٢٨) زيري بن مناد الصنهاجي: هو زيري بن مناد الصنهاجي الحميري أول من ملك من الصنهاجيين بالمغرب الاوسط، وهو الذي بني مدينة (آشير) وإليه تنسب وحصنها في ايام خروج أبي يزيد مخلد الخارجي لما خرج على القائم بن المهدي وعلي ولده المنصور إسماعيل، وأعطاه المنصور إسماعيل (تاهرت) وأعمالها، وكان حسن السيرة شجاعا، وأمر ابنه بلكين ببناء مليانة ومدينة الجزائر والمدية، وكان مواليا لملوك (الفاطميين) عند ظهورهم، وقتل في معركة بينه وبين جعفر ابن على الاندلسي وذكر أن فرسه كبا به؛ فسقط إلى الأرض فقتل في شهر رمضان سنة (٣٦٠هـ/ ٩٧٠م). ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢، ص ٣٤٣؛ الزكلي: الأعلام، ج٣، ص ٦٣.

(١٢٩) جعفر بن على الأندلسي: هو جعفر بن على بن حمدون المعروف بالأندلسي جدهم الأكبر عبد الحميد وفد إلى الأندلس وسكن البيرة، وأنتقل حمدون إلى بجاية بالمغرب ومال إلى الدعوة الفاطمية فكانت له مكانة رفيعة لدي الفاطميين، توارث هذه المكانة ابنه على الذي أصبح من أكبر قادة الفاطميين في عهد عبيد الله المهدي وبني بتكليف منه مدينة المسيلة وتولي أمرها من بعده ابنه جعفر. ابن حيان: المقتبس، تحقيق عبد الرحمن على الحجى، ص ٣٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٦٠؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج١، ص ٣٠٥- ٣٠٨.

(١٣٠) المسيلة: مدينة من بلاد الزاب بالمغرب الأوسط، أسسها على بن حمدون الأندلسي بأمر من أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي سنة (٣١٠هـ/ ٩٢٢م) وهي تقع بالقرب من قلعة بن حماد، وهي مدينة كثيرة الخيرات و تسكنها قبائل كثيرة من البربر كهوراة وبني برزال. الحميرى: الروض المعطار، ص ٥٥٨.

(١٣١) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجى، ص ٣٥ -٣٧؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٥٧؛ بدر: تاريخ الأندلس، ص ٩٤.

بعد مقتل زعيمها زيري الذي كبا به فرسه صريعاً[١٣٢] فأحتز جعفر رأسه وبعث به إلى الخليفة الحكم المستنصر مع أخيه يحيى[١٣٣]، ثم لم يلبث أن لحق بأخيه عابرا إلى بر الأندلس وافدا إلى خليفتها المستنصر الذي استقبله أحسن استقبال وأنزله المكانة الرفيعة[١٣٤] .

كانت هذه الحادثة ضربة قوية لنفوذ الدولة الفاطمية وحليفتها القوية صنهاجة في حين كانت انتصارا للسياسة الأموية في المغرب[١٣٥]، وقد رد الفاطميون على ذلك بحملة قوية قادها بلكين بن زيري[١٣٦] الذي كان يحمل حقدا ورغبة في الانتقام لمقتل والده فاستعد بنو خزر والزناتيون لمواجهته فوقعت الحرب بينهما لكن الزناتيين خسروها ومزق جيشهم فأقدم زعيمهم محمد بن الخير بن خزر على الانتحار خوفا من سطوة بلكين[١٣٧] فتقدم بلكين نحو تاهرت وبسكرة[١٣٨] وطبنه[١٣٩] والمسيلة حتى يقال إنه (لم يترك عند أحد منهم فرسا ولا جملا)[١٤٠]، وبعد أن شفي بلقين غلة من الزناتيين عاد قافلا إلى القيروان حيث استقبله المعز

(١٣٢) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجى، ص ٣٧؛ ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٧٤. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢، ص ٣٦٠.
(١٣٣) ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٧٤؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٩١.
(١٣٤) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجى، ص ٤٤؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٤٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٦٠؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٩١.
(١٣٥) بيضون: الدولة العربية، ص٣٢٢.
(١٣٦) بلكين بن زيري: (٣٦١- ٣٧٣هـ/ ٩٧١- ٩٨٣م) بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، أبو الفتوح، سيف الدولة، المسمى (يوسف) يرفع نسبه إلى حمير: مؤسس الامارة الصنهاجية بتونس، كان في بدء أمره من قواد المعز الفاطمي، وأبلي في إخضاع زناتة بالمغرب البلاء الحسن، فلما استولي الفاطميون على مصر وأراد المعز الانتقال من المهدية إلى الديار المصرية سنة (٣٦١ هـ/ ٩٧١م)) ولاه إفريقية، ما عدا صقلية وطرابلس الغرب وسماه يوسف (بدلا من بلكين) وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة، وفي أيامه ثار أهل المغرب الاقصى فخلعوا طاعة الفاطميين وخطبوا للمروانيين (أصحاب الاندلس) فسار إليهم بلكين ودخل مدينة فاس عنوة، واستولي على سجلماسة، وأخرج عمال بني أمية، وأعاد الخطبة للفاطميين. ودان له المغرب كله. وتوفي في موضع بين سجلماسة وتلمسان يقال له (واركنفو) سنة (٣٧٣هـ/ ٩٨٣م). ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص ٣٣٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص ٤٢٨٦؛ الصفدى: الوافي بالوفيات، ج١٠، ص ١٨١.
(١٣٧) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجى، ص ٣٨؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٩٤.
(١٣٨) بسكرة: بكسر الكاف وراء بلدة بالمغرب من نواحي الزاب بالمغرب الأوسط بينها وبين قلعة بني حماد مرحلتان. الحموى، معجم البلدان، ج١، ص ٤٢٢، الحميرى: الروض المعطار، ص ١١٣، ١١٤.
(١٣٩) طبنة: من بلاد الزاب بالمغرب بينها وبين المسيلة مرحلتان وهي مدينة كبيرة وعليها سور من حجر متقن البناء. البكرى: المغرب من ذكر إفريقية والمغرب، ص ٥١؛ الحميرى: الروض المعطار، ص٣٨٧.
(١٤٠) ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٧٥.

خير استقبال وخلع عليه الخلع وولاه حكم المغرب نيابة عنه فيما رحل هو إلى مصر حاضرته الجديدة (١٤١) .

الحسن بن كنون يعرض تقديم الرهائن للخليفة الحكم المستنصر:

دفعت حملة بلكين بن زيري الناجحة بالأدارسة من آل محمد وزعيمهم الحسن بن كنون(١٤٢) إلى إعلان ولائهم إلى الفاطميين وخلع طاعة الأمويين مغضبين بذلك الخليفة الحكم المستنصر الذي رأي أن سياسة التدخل غير المباشرة في المغرب بواسطة حلفائه المغاربة لم تعد تجدي نفعا وأنه حان الوقت للقيام بعمل تأديبي في المغرب الأقصى لذلك أمر بإعداد جيش أندلسي ضخم حسن الأهبة تحت إمارة قائده ووزيره محمد بن القاسم بن طملس فعبر هذا الجيش إلى سبتة في شوال سنة (٣٦١هـ/٩٧١م)(١٤٣)، واستعد للقاء الحسن بن كنون الذي كان في طنجة فلما علم بقدوم القوات الأندلسية تهيأ للقائها والتحم الطرفان بأحواز طنجة وكانت نتيجة المعركة أن هزم ابن كنون وقتل العديد من أتباعه(١٤٤).

(١٤١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص ٤٣٣٤؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٦٢، ٦٣.
(١٤٢) عندما خرج أبو العيش الإدريسي إلى الأندلس للجهاد ومات شهيدا عام (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) إستخلف على عمله أخاه الحسن بن كنون وهو آخر الملوك الأدارسة في المغرب ولم يزل الأخير مستمسكا بدعوة آل مروان حتى مجئ جوهر الصقلي إلى المغرب فبايع الفاطميين لكنه رجع عن بيعتهم وعاهد بني أمية ثانية وكان نفوذ الأدارسة قد تقلص إلى منطقة الريف المغربى. السلاولى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥١-٢٥٣.
(١٤٣) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجى، ص ٨٠.
(١٤٤) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجى، ص ٨٩؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٩٥.

وتقدم الجيش الأموي واستولى على طنجة بعد أن خرج شيخهم بن الفاضل مناديا الطاعة لله تعالى ولأمير المؤمنين المستنصر وفي أثناء ذلك أرسل الحكم إلى قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس وأمر رجاله بالتأهب وإعداد الأساطيل (أسطولي المرية وإشبيلية) ليكونوا بالقرب من القائدين طلمس، وليطلعوا الحكم على أخباره وتحركاته، فبشروه أولا بفتح طنجة وفرار بن كنون ثم التقي بن طلمس مع ابن كنون مرة أخرى فهزمه فالتجأ إلى جبل حصين قرب طنجة يدعى جبل الريح وتحصن به ولكن جنود ابن طلمس استطاعوا أن يستولوا على الجبل واستطاع ابن كنون الهرب ثانية فواصل الجيش تقدمه نحو اصيلا التي استولى عليها(١٤٥)، ثم زحف الجيش الأموي نحو قلعة دلول(١٤٦) وتحصنوا فيها فيما كان الحسن بن كنون بعد هزيمته يجمع قواته ويعيد تنظيمها ثم التقي بالقوات الأموية في مكان يعرف بـ(فحص مهران) بالقرب من طنجة(١٤٧) فدارت الدائرة على الأندلسيين الذين خسروا المعركة وقتل قائدهم محمد بن القاسم بن طلمس سنة (٣٦٢هـ/٩٧٢م)، في حين اتجهت فلول الجيش الأموي إلى مدينة سبته وتحصنوا بها وبعثوا إلى الخليفة الحكم يخبروه بالأمر(١٤٨).

لقد أدرك الحسن بن كنون خطورة ما ارتكبه فأراد التوبة فأرسل يطلب الصلح من الخليفة الحكم وتقديم الطاعة وبذل الرهائن(١٤٩)، ورفض الخليفة الحكم طلبه وبادر بإرسال كبير

(١٤٥) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجى، ص ٩٠، ٩١؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٧، ص ٢٦؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ٤١٢.

(١٤٦) دلول: قلعة حصينة في أعلي جبل منيف بينها وبين مدينة مستغانم بقرب نهر شلف مسيرة يومين وبينها وبين البحر خمسة فراسخ. الحميري ك الروض المعطار، ص ٤٧٠.

(١٤٧) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجى، ص ٩٦. يذكر السلاوي أن المعركة حدث في فحص بني مصرخ بالقرب من طنجة. السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥٦.

(١٤٨) مجهول: ممفاخر البربر، ص٩٨؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ٢٤٥، ٢٤٦؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥٦؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ٤١٢، ٤١٣.

(١٤٩) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجى، ص ٩٧.

قادته وأكفئهم غالب بن عبد الرحمن[١٥٠] وأمده بالجند والأموال الكثيرة ليشتد في قاتلة ابن كنون وقال له: (سير سير من لا إذن له في الرجوع حياً إلا منصوراً أو ميتاً فمعذوراً وابسط يدك في الإنفاق فإن أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال)[١٥١] وإن دل ذلك إنما يدل على عظم أهمية الغرب لاسيما الأقصى لخلفاء بني أمية في الأندلس بوصفه خط دفاع متقدم للأندلس فضلاً على أهميته السياسية والاقتصادية والتجارية.

وسار القائد غالب بقواته الجرارة من قرطبة سنة (٣٦٢هـ/٩٧٢م) وعبر البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة [١٥٢] وكان الحسن بن كنون قد تحصن في قلعة حجر النسر [١٥٣]، فقام القائد غالب بالاستيلاء على مدينة البصرة [١٥٤]، وأخذ رهنهم وسار إلى الطاعة جميع أهل الغرب [١٥٥]

فنجد أن القائد غالب في سبيل أن يمكن للدعوة الفاطمية في بلاد المغرب اتبع سياسة اتخاذ الرهائن من هذه البلاد.

(١٥٠) غالب بن عبد الرحمن: هو القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري صاحب مدينة سالم، وكان مولي للخليفة عبد الرحمن الناصر، وكان غالب، فضلا عن كونه من نصحاء الحكم، ومستشاريه المقربين من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها في هذا العصروكان من أكابر دولة الحكم، وكان الحكم، عرفاناً منه بقدر هذا القائد المظفر، قد أسند إليه القيادة العليا، وأصدر مرسومه بذلك إليه في سنة (٣٦١ هـ/ ٩٧١م)، ودخل غالب الناصري في عداء شديد مع المنصور بن أبي عامر لإنفراده بالحكم وحجره على الخليفة هشام المؤيد وتوفي غالب الناصري سنة (٣٧١هـ/ ٩٨١م). ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٢٧٩؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ١٨٩؛ .عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ٣٧٨.

(١٥١) مجهول: ممفاخر البربر، ص٩٩؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص ٢٩١؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ١٨٧.

(١٥٢) قصر مصمودة: حصن كبير بينه وبين سبتة اثنا عشر ميلاً، وهو على ضفة البحر تخرج منه المراكب التي يسافر بها إلى بلاد الأندلس وهو على رأس المجاز الأقرب إلى ديار الأندلس، وبين قصر مصمودة وطنجة عشرون ميلاً. الحميرى: الروض المعطار، ص ٤٧٦.

(١٥٣) حجر النسر: قلعة منيعة تقع جنوب نطوان، وهي حصنا منيعا بناه محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس. البكرى: المغرب، ص ١١٥؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٤٢؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٩٣.

(١٥٤) البصرة: مدينة مغربية كبيرة فيما بين طنجة وفاس بينها وبين فاس مرحلتان . الحميرى: الروض المعطار، ص ١٠٨.

(١٥٥) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٢٤٧.

اتجه القائد غالب الناصري من مدينة البصرة إلى قلعة النسر التي تحصن بها ابن كنون فحاصرها حصارًا شديدًا (١٥٦) لكن مناعة قلعة النسر أطال من عمر هذا الحصار، فتحرك الأسطول الذي يقوده بن رحامس من طنجة إلى أصيلة حيث أسطول المرابط ليكون على مقربة من الحدث وقد بارك المستنصر هذه الخطوة بقوله: (إن اجتماع الأسطولين من صواب التدبير والأخذ بالحزم) (١٥٧) وقاتله غالب أياما وسرب الأموال إلى رؤساء البربر الذين مع الحسن بن كنون ووعدهم ومناهم فانفضوا عن الحسن، حتى لم يبق معه إلا خاصته ورجاله فلما رأي ذلك سار إلى حجر النسر فتحصن به واتبعه غالب فحاصره به ونزل عليه بجميع جيوشه، وقطع عنه المواد وأمده الحكم بعرب الدولة الذين بالأندلس ورجال الثغور فوصل المدد إلى غالب بقيادة القائد يحيي بن محمد التجيبي في غرة المحرم سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣م) (١٥٨)، فاشتد الحصار على الحسن بن كنون فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله وينزل إليه فيسير معه إلى قرطبة فيكون بها فأجابه غالب إلى ذلك وعاهده عليه فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله وأسلم الحصن إلى غالب فملكه، في جمادي الآخرة سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣م) ودعي للحكم على منبر مسجدها(١٥٩)، ثم تتبع بقايا الأدارسة ببلاد الريف وفاس حتى استأصل شافتهم وأخضع المغرب الأقصى للدعوة الأموية(١٦٠).

(١٥٦) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجي، ص ١٣٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٢٤٧؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥٧.
(١٥٧) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجي، ص ١١٦.
(١٥٨) مجهول: ممفاخر البربر، ص٩٩؛ ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجي، ص ١٢٨. ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص ٢٩١.
(١٥٩) ابن حيان: المقتبس، تحقيق الحجي، ص ١٥١؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٩٣.
(١٦٠) السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥٩؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص ٢٩١، ٢٩٢.

زعماء الأدارسة رهائن عند الخليفة الحكم المستنصر:

وفي أواخر سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣م) عاد القائد غالب الناصري إلى الأندلس مستصحبا معه الحسن بن كنون وأتباعه الأدارسة، وقد بالغ الحكم المستنصر في إكرامهم وعفا عن الحسن بن كنون وأوسع لرجاله وأدخلهم في ديوان العطاء وكانوا سبعمائة رجل أنجاد وأسكنهم قرطبة (١٦١).

ونجد أن الحسن بن كنون ومن معه من الأدارسة أصبحوا رهائن عن الخليفة الحكم المستنصر، فهم تركوا أملاكهم التي ورثوها في بلاد المغرب، وأن الحكم أبقاهم رهائن عنده وذلك حتى لا يرتموا في أحضان الدولة الفاطمية في مصر ويعملوا على استعادة أملاكهم، فحياتهم أصبحت مرهونة ببقائهم في مدينة قرطبة تحت عين الخليفة الحكم المستنصر، ومتعرضين لكرمه أو سخطه ونكبته.

لم تدم علاقة المودة بين الحكم المستنصر والحسن بن كنون، إذ سرعان ما كدر صفوها سوء خلق بن كنون وسماجته التي طالما أظهرها للمستنصر، الذي لم ينس ما قام به ابن كنون بأسرى الجيش الأندلسي عندما كانت الحرب دائرة بينهم، فقد كان يلقي بهم من أعلي قلعته في المغرب فيصلون الأرض مقطعين إربا، فأدي ذلك إلى نكبة الخليفة لجرده من أمواله وأملاكه سنة (٣٦٥هـ/٩٧٥م)(١٦٢)، ثم انشغل الخليفة الحكم بمرضه تاركا أعباء الحكم

(١٦١) مجهول: مفاخر البربر، ص ٩٩، ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٢٤٨؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص٢٩٢؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥٨.

(١٦٢) مجهول: مفاخر البربر، ص ١٠٠، ١٠١؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥٩؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٩٩.

لوزيره جعفر بن عثمان المصحفي(١٦٣) الذي رأي من الأفضل أن يعود يحيي بن محمد التجيبي إلى عمله في الثغر الأعلى الذي كان يشهد نشاطاً واسعاً من قبل الأسبان، وأسند أمر المغرب إلى جعفر بن على الأندلسي وأخيه ليحكماه باسم الخليفة الحكم المستنصر وجهزهما بالأموال والخلع ليجمعا حولهما زعماء البربر، فوصلا إلى قلعة النسر وسلم إليهما يحيي التجيبي مقاليد حكم المغرب وقفل راجعاً إلى قرطبة فدخلها سنة(٣٦٥هـ/٩٧٥م) ثم أرسل إلى سرقسطة (١٦٤).

وأقدم المصحفي على خطوة كانت لها عواقبها السيئة على النفوذ الأموي في المغرب فيما بعد وهي إخراج الحسن بن كنون وأتباعه من الأدارسة من الأندلس وترحيلهم إلى المشرق وأخذ عليه المواثيق والعهود على ألا ينزلوا بالمغرب(١٦٥)، وزودهم بالأموال التي يستعينوا بها على سفرهم، ووكل بهم من يخرجهم من الأندلس عن طريق المرية فعبروا البحر إلى تونس أواخر سنة (٣٦٥هـ/٩٧٥م)، وذلك للتخلص من نفقاتهم الباهظة(١٦٦)، مما أدي إلى أن يلجأ هؤلاء الأدارسة إلى الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م)(١٦٧)، الذي

(١٦٣) جعفر بن عثمان المصحفي: هو جعفر بن أحمد بن سلمة بن عباد بن يونس بن عبد الله بن كسيلة من برابر بلنسية يعرف بالمصحفي،وكان شاعراً وأديباً متمكن في الرسائل المملوكية، ولى جزيرة ميورقة في أيام الناصر. ولما ولى الحكم استوزره، وضم إليه ولاية الشرطة. وآلت الخلافة إلى هشام المؤيد ابن الحكم، فتقلد حجابته وتصرف في أمور الدولة، وقوي عليه المنصور بن أبي عامر بخدمته لصبح (أم هشام المؤيد) فاعتقله وضيق عليه، فاستعطفه جعفر بمنظومه ومنثوره، فلم يرق له، وصادره في ماله حتى لم يترك له ولا لابنائه ما يسدون به أرماقهم، وسجنه بالمطبق إلى أن هلك فيه سنة (٣٧٢هـ/ ٩٨١م) وبعث بجسده إلى أهله. الحميدى: جذوة المقتبس، ص ١٨٧، ١٨٨؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج١، ص ٢٥٧- ٢٦٧؛ المقرى: نفح الطيب، ج١، ص ٤٥؛ الزركلى: الأعلام ج٢، ص ١٢٥.

(١٦٤) مجهول: مفاخر البربر، ص ١٠٣. ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٢٤٩.

(١٦٥) مجهول: مفاخر البربر، ص ١٠٤.

(١٦٦) ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص٢٩٢؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥٩؛ العبادى: في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٣٤.

(١٦٧) الخليفة العزيز بالله: (٣٤٤ - ٣٨٦هـ/ ٩٥٥- ٩٩٦م) هو أبو المنصور نزار، الملقب العزيز بالله، ابن المعز بن منصور بن القائم بن المهدي، ولد في المهدية سنة (٣٤٤هـ/ ٩٥٥م)، وبويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة (٣٦٥ هـ/ ٩٧٥م) وكانت في أيامه فتن وقلاقل. كان كريماً شجاعاً، حسن الصفح، يكره سفك الدماء، وكان أديبا=
= فاضلا. ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص ٢٢٩، ٢٣٠؛ الذهبى: تاريخ الإسلام، ج٢٧، ص١٢٩؛ الزركلى: الأعلام ج٨، ص ١٦.

أكرمهم ووعدهم بالنصر والأخذ بثأره من الأمويين[١٦٨]، فكان الأدارسة بقيادة الحسن بن كنون سلاحاً استخدمه الفاطميون لإضعاف نفوذ الأمويين في المغرب فيما بعد[١٦٩] .

ولقد أخطا الأمويون عندما أخرجوا الحسن بن كنون من الأندلس فبعد أن كان رهينة تحت أعينهم أصبح حرباً عليهم.

نزل الحسن بن كنون مصر سنة (٢٦٥هـ/٩٧٥م) وبقي فيها، غير أن الخليفة الفاطمي أراد بدوره الخلاص من نفقات الحسن بن كنون فشاور وزيره يعقوب بن كلس[١٧٠] في أمر الحسن بن كنون والخلاص منه، وخصوصاً أن الحسن بن كنون كانت لديه الرغبة في العودة إلى بلاده في المغرب الأقصى لاستعادة ملك أبائه الأدارسة، فأيده الخليفة الفاطمي العزيز وزيره في تحقيق رغبته وأقره على ولاية الغرب الأقصى، وكتب إلى بلكين الصنهاجي لمساعدة الحسن بن كنون[١٧١]، وأمره بطرد الأمويين ودعوتهم من المغرب الأقصى، فسار الحسن بن كنون من مصر إلى المغرب الأقصى سنة (٣٧٣هـ/٩٨٣م) في جيش صغير والتقي ببلكين الصنهاجي الذي أمده بالمال والرجال ونجح الحسن في نشر دعوته باستعادة ملك الأدارسة في الوقت الذي توفي فيه بلكين الصنهاجي[١٧٢].

(١٦٨) السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥٩؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٩٩.
(١٦٩) بدر: تاريخ الأندلس، ص ١٠٠.
(١٧٠) يعقوب بن كلس: هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس، وزير العزيز نزار بن المعز صاحب مصر كان يعقوب يهودياً يزعم أنه من ولد هارون بن عمران ولد ببغداد وأنقذه إلى مصر سنة (٣٣١هـ/ ٩٤٢م) وأصبح من جملة كتاب كافور، وأسلم سنة (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) وولي الوزارة للخليفة العزيز بالله سنة (٣٦٨هـ/ ٩٧٨م) وكان أول من وزر للدولة الفاطمية في مصر، وكان يعقوب يحب أهل العلم ويجمع عنده العلماء، وعظمت منزلته عند الخليفة العزيز بالله، وتوفي في صباح الاثنين لخمس خلون من ذي الحجة سنة (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م). ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٧، ص٤٢؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٨، ص ٨٧- ٩١.
(١٧١) ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٥٤٤.
(١٧٢) مجهول: مفاخر البربر، ص ١٠٨؛ ابراهيم بيضون: الدولة العربية في أسبانيا، ص ٣٤٦.

ولما سمع المنصور بن أبي عامر خبر دخول الحسن بن كنون إلى المغرب الأقصى جهز جيشا بقيادة ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر المعروف بعسقلاجة(١٧٣) لمحاربته، وخرج المنصور معه إلى الجزيرة الخضراء في شهر ربيع الأول سنة (٣٧٥هـ/٩٨٥م) وقد سار مع عسقلاجة محمد بن أحمد بن جابر، الذي زوده المنصور بالأموال لصرفها عند الحاجة، وأيضا صهره الوزير عبد الرحمن محمد التجيبي وغيره من كبار قواد الجيش الأندلسي وأنضم إلى عسقلاجة زعماء مغراوة وفي مقدمتهم زيري بن عطية بن خزر(١٧٤) (١٧٥) كما أمد المنصور عسقلاجة بجيش آخر تحت قيادة ابنه عبد الملك الذي كان سنه آنذاك اثني عشرة سنة، وطارد عسقلاجة الحسن، ثم أحاطه بقواته وحاصره حتى أرهقه الحصار، فما كان من الحسن بن كنون إلا أن لجأ إلى حيلته الأولي ولم ير بداً من طلب الأمان والتسليم، على أن يسير إلى الأندلس كسابق عهده، فأجيب إلى طلبه، وبعث به إلى قرطبة تحت حراسة مشدده، وكان المنصور بن أبي عامر قد رأي أنه لا ذمة لحسن بن كنون مع كثرة نكثه وسعيه بالفساد ضد الخلافة الأموية، فأنفذ إليه من قتله في الطريق وأتاه برأسه، وذلك في جمادي الأولي سنة (٣٧٥هـ/٩٨٥م) وانهارت بذلك دعوة الأدارسة (١٧٦).

(١٧٣) الحكم عمرو بن عبد الله: هو بن عم النصور بن أبي عامر، وقد أنفذه المنصور سنة (٣٧٥هـ/٩٨٥م) من أجل محاربة الحسن بن كنون، ثم قلده أمر المغرب وكل أعماله، ثم استدعاه إلى الأندلس سنة (٣٧٦هـ/٩٨٦م). ابن خلدون: تاريخه، ج، ص٢٧؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٥٩.

(١٧٤) زيري بن عطية: زيري بن عطية الخزري المغراوي الزناتي: أمير زناتة. ولما قامت (صنهاجة) بدعوة العبيديين، في المغرب ثبتت زناتة على الدعوة للامويين،وقادها زيري بن عطية فملك مدينة (فاس) وغيرها، واتسع سلطانه، وخاض حروبا كثيرة، آخرها بينه وبين جيوش (ابن أبي عامر) فأثخن فيها بالجراح، ومات بعد ذلك سنة (٣٩١هـ/ ١٠٠٠م). ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص ٤٢٥؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٦٥؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ٢٠٢، ٢٠٣؛ الزركلى: الأعلام، ج٣، ص ٦٣.

(١٧٥) مجهول: مفاخر البربر، ص ١٠٩؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٦٤.

(١٧٦) مجهول: مفاخر البربر، ص ١١٠؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٦٠؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٥٤٥.

أبو البهار بن زيري يقدم ابنه رهينة للمنصور بن أبي عامر:

شغلت بلاد المغرب معظم اهتمام الحاجب المنصور بن أبي عامر وسار على نفس سياسة الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في السيطرة على بلاد المغرب، واصطناع بربر زناتة في المغرب الأقصى حتى يضمن ولائهم، وقد دخلت في الطاعة الأموية كل البلاد المغربية الممتدة إلى سجلماسة جنوباً سنة (٣٧٠هـ/٩٨٠م)، وإلى ولايتي تلمسان وتاهرت شرقاً سنة (٣٨١هـ/٩٩١م) (١٧٧).

ورغم سيطرة المنصور بن أبي عامر على تلك المناطق إلا أن أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي قد خالف على ابن أخيه منصور بن بلكين ابن زيري بن مناد الصنهاجي أمير إفريقية وخلع دعوة الشيعة ومال إلى دعوة المروانيين وغلب على المهدية وتونس وشلشال وتلمسان ووهران وشلف وكثير من بلاد الزاب وخطب للخليفة هشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر وبعث ببيعته إليهم، وذلك في سنة (٣٧٧هـ/٩٨٧م)، فلما وصلت بيعته إلى المنصور بن أبي عامر بعث إليه بعهده على ما بيده من البلاد وبهدية وخلع وبأربعين ألف دينار فلما قبض أبو البهار المال والهدية أقام على بيعتهم نحو الشهرين ثم خلعهم وعاد إلى العبيديين فبلغ ذلك المنصور فغاظه وكتب إلى زيري بن عطية بعهده على بلاد أبي البهار وأمره بقتاله عليها فسار إليه زيري بن عطية من فاس في جيوش لا تحصي من قبائل زناتة وغيرهم ففر أبو البهار أمامه ولحق بابن أخيه منصور بن بلكين وترك له البلاد فملك زيري بن عطية تلمسان وسائر أعمال أبي

(١٧٧) العبادى: تاريخ المغرب، ص٢٥٠، ٢٥١.

البهار فانبسط سلطانه بالمغرب من السوس الأقصى إلى الزاب وكتب بالفتح إلى المنصور بن أبي عامر وبعث له بهدية عظيمة(١٧٨).

وطلب أبو البهار بن زيري الدخول في الطاعة مرة أخرى فعفا عنه المنصور، وفي سنة (٣٧٩هـ/٩٨٩م)، نقض أبو البهار بن زيري العهد الذي بينه وبين المصور بن عامر، فزحف إليه المنصور إلى تاهرت، ففر أبو البهار إلى الغرب، ودخل عسكر المنصور تاهرت فنهبوا وقتلوا، ثم أمنهم بعد ذلك(١٧٩)، ورجع المنصور عن تبع عمه أبو البهار، وآوي على تاهرت أخاه يطوفت ومضي المنصور إلى مدينة أشير وكتب أبو البهار إلى ابن أبي عامر، يسأله الدخول في طاعته، وأن يكتب له إلى زيري بن عطية الزناتي صاحب فاس أن يكون مواليا ومصافيا لابن أبي عامر، فكتب ابن أبي غامر إلى أبي البهار: أن كنت على نية فيما وصفته عن نفسك، فأرسل إلى ابنك، يكون رهينة عندي وأفعل عندك ما أحببته! فوجه إليه ابنه في مركب مع ميمون المعروف بابن الدابة كأبيه، فعطب المركب وماتا جميعا في البحر، فوجه إليه ولده الآخر، فوصل إليه فوجه ابن أبي عامر لأبي البهار أموالا وكسي وكتب إلى زيري بن عطية في زحفه أن يعاضده وينصره، ويكون معه، فلما بلغ ذلك أبا البهار وصل إلى فاس واتفق مع زيري بن عطية صاحبها (١٨٠).

(١٧٨) مجهول: مفاخر البربر، ص ١١٣؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٦٦.
(١٧٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص ٤٤١؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص٢٠٨.
(١٨٠) ابن خلدون: تاريخه، ج٦، ص٢٠٨؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥، ص ١٨٥.

زيري بن عطية يعرض تقديم الرهائن للمنصور بن أبي عامر:

عندما علم المنصور بن أبي عامر بموت الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي حاكم المغرب عقد لزيري بن عطية على المغرب وندبه لحكمه بالتعاون مع جيش المنصور المقيم هناك(١٨١)، فأتخذ زيري مدينة فاس مقراً له وقام بالدعوة للخليفة هشام المؤيد بالله ولحاجبه المنصور بن أبي عامر، وكان زيري هذا زعيم قبيلة مغراوة التي تعتبر أهم القوي السياسية التي أعتمد عليها المنصور بن أبي عامر في المغرب، والتي ظلت تناصر دعوة الأمويين في المغرب والممثلة في شخص المنصور بن أبي عامر(١٨٢) وأعتمد المنصور بن أبي عامر في تنظيم جيشه على هذه القبيلة التي أمدته بأعداد وافرة من الرجال وقد تمتع المغرب بالهدوء والاستقرار زهاء عشرة سنوات من سنة (٣٧٦-٣٨٦هـ/٩٨٦-٩٩٦م) إذ كانت العلاقات بين المنصور والزناتيين ودية وتتسم بالتعاون ما نال زعيم الزناتيين زيري بن عطية مكانة رفيعة لدي المنصور بن أبي عامر(١٨٣)

استدعى المنصور بن أبي عامر زيري بن عطية في سنة (٣٨٢هـ/٩٩٢م) للقدوم عليه، فاستخلف زيري على المغرب ولده المعز وصار زيري إلى قرطبة قدم إلى المنصور ومعه هدايا عظيمة(١٨٤)، وأعجب المنصور بتلك الهدايا ومنح زيري لقب الوزارة وجدد له عهده على المغرب، ولكن زيري لم يبتهج من لقب الوزارة بل على العكس ساءه ذلك، حيث كان

(١٨١) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٥٤٦.
(١٨٢) مجهول: مفاخر البربر، ص ١١١؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص٢٨١.
(١٨٣) مجهول: مفاخر البربر، ص ١١١؛ ابراهيم بيضون: الدولة العربية في أسبانيا، ص ٣٤٧، ٣٤٨.
(١٨٤) لمزيد من التفاصيل عن تلك الهدايا أنظر: مجهول: مفاخر البربر، ص ١١٢؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٦٦.

يعتبر نفسه في مرتبة الإمارة ولذلك قال زيري بعد عودته إلى المغرب " الآن علمت أنك لي" ويقصد بذلك بلاد المغرب، وصار إلى طنجة وهناك أشاع خبر استقلاله بالمغرب حيث قال لبعض رجاله يتوعد المنصور: " والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله وإن له منا يوماً " وصل المنصور خبر غضب زيري عليه، فتركه المنصور حيث أن الوقت لم يكن مناسباً للرد عليه ومع ذلك لم يبدأ زيري بإشهار معاداة المنصور لاسيما أن المنصور حقق له رغبته في حكم المغرب ومن ثم استمرت العلاقات بين المنصور وزيري بن عطية طيبة حتى سنة (٣٨٦هـ/٩٩٦م) كما سنرى [185].

وما كاد زيري بن عطية يصل إلى طنجة بعد عودته من الأندلس حتى علم بأن خصومه من بني يفرن تحت قيادة زعيمهم يدو بن يعلي الذي انتهز فرصة غياب زيري عن المغرب، وزحف على فاس واستولى عليها سنة(٣٨٢هـ/٨٩٢م) وقتل كثيراً من رجال مغراوة في فاس، فجهز زيري جيشاً لملاه يدو بن يعلى، وقامت بينهما معارك عديدة انتهت بهزيمة يدو بن يعلي وقتله، ثم أرسلت رأسه إلى المنصور بن عامر في أوائل سنة (٣٨٣هـ/٨٩٦م) [186]. .

. وأصبح زيري بن عطية بعد هزيمته لبني يفرن ولزعيمهم أعظم أمراء المغرب قوة وبأساً، وعلي الرغم من أنه ظل يتظاهر بولائه للمنصور بن أبي عامر وللدعوة الأموية في المغرب، إلا أنه كانت لديه نية الاستقلال بالمغرب، ولما كانت مدينة فاس بموقعها في الطرف الغربي للمغرب وعلي مقالبة من مواطن القبائل المعادية له فقد أصبحت لا تصلح لمشاريعه المستقبلية، لذلك أنشأ لنفسه مدينة جديدة وهي مدينة وجده الواقعة جنوب شرق مليلة، وعلي مقربة من جنوب غرب تلمسان، وشرع في بنائها سنة (٣٨٤هـ/٩٩٤م) وأحاطها بأسوار ضخمة، وأنتقل

(١٨٥) مجهول: مفاخر البربر، ص ١١٧؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٦٩.
(١٨٦) السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٦٨.

إليها بسلاحه وجنده وأتخذها مقراً لحكمه سنة (٣٨٦هـ/٩٩٦م) وذلك لموقعها المتوسط بين المغربين الأوسط والأقصى[187].

لما أدرك المنصور بن أبي عامر نوايا زيري بن عطية الاستقلالية بعث كاتبه عيسى بن سعيد اليحصبي إلى المغرب في جيش ضخم، وقلده النظر في شأن زيري بن عطية، ولما وصل إلى المغرب قام بعدة حملات مع زيري بن عطية لتصفية خلافاته مع المنصور، ولكنه لم يستطع تصفيتها نظراً لعدم موافقة زيري مصالحة المنصور، فمكث عيسى بقية سنة (٣٨٦هـ/٩٩٦م)[188]

وأعلن زيري الثورة علناً سنة (٣٨٦هـ/٩٩٦م) وذلك بسبب استبداد المنصور بالسلطة والنفوذ في الأندلس وحجره على الخليفة هشام المؤيد، وكانت السيدة صبح قد حرضت زيري على المنصور لحجره على ابنها هشام، وبعثت إليه الأموال ليتمكن من الدخول إلى الأندلس بجيشه للإطاحة بالمنصور بن أبي عامر وإعادة سلطات الخلافة لابنها هشام، وكان أول ما قام به زيري أن طرد عمال المنصور على المغرب، ما عدا عماله على القواعد الأندلسية المطلة على المضيق مثل سبته ومليلة، ومن ضمن أسباب ثورة زيري أيضاً هو أن زيري احتقر لقب الوزارة الذي منحه له المنصور، وأن السبب الحقيقي لخروج زيري عن طاعة المنصور بن أبي عامر هو رغبته في الاستقلال بالمغرب، وجعل من تمسكه بالولاء للخليفة هشام المؤيد ذريعة لتحقيق أهدافه بالاستقلال، وجعل زيري شعاره في حروبه مع المنصور " هشام يا منصور " بينما كان شعار جند المنصور " يا منصور " وبذلك نكث زيري بن عطية المغراوي طاعته

(١٨٧) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥، ص ١٨٥، ١٨٦.
(١٨٨) مجهول: مفاخر البربر، ص١١٧، ١١٨ .

للمن صور بعد الحب الشديد والولاء الأكيد، وطعن على بن أبي عامر تغلبه على هشام وسلبه ملكه" (١٨٩).

فما كان من المنصور إلا أن قطع رزق الوزارة عن زيري، ومحي اسمه من ديوانه وتبرأ منه في شوال سنة (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)، فرد عليه زيري بطرد عماله الذين لجأوا إلى مدينة سبته، وقطع أيضاً ذكره من الخطبة في المساجد واقتصر على ذكر الخليفة هشام المؤيد بالله، فجهز المنصور جيشاً كبيراً وأسن قيادته إلى فتاه واضح الصقلبي قائد مدينة سالم، حيث كان المنصور يثق في مقدرته القتالية وزوده بالمال والسلاح، فعبر واضح بالجيش المضيق في نهاية شهر شوال سنة (٣٨٧هـ/٩٩٧م) ونزل مدينة طنجة(١٩٠) وكان المنصور قد أمد واضح بمن كان في الأندلس من زعماء زناتة و الخارجين على زيري فتكاملت جيوش واضح وفي طنجة انضم إلى واضح عدد من زعماء زناته وحالفوه على محاربة زيري، فخرج واضح في جمع غفير من الجيش قاصداً مدينة فاس، وخرج زيري بن عطية لملاقاته، فالتقي الجيشان بوادي زارات جنوب طنجة، ونشبت بينهما معارك حربية عنيفة استمرت على مدي ثلاثة أشهر استطاع زيري أن يهزم واضح وجيشه وقتل معظمه إلا أن واضح ومن بقي معه من الجيش تمكن من الفرار إلى طنجة وكتب للمنصور بن أبي عامر يستنجده بجيش آخر وشرح له ضراوة الحرب مع زيري بن عطية طيلة الثلاثة أشهر(١٩١).

وبعد سماع المنصور خبر هزيمة جيشه اضطر إلى اتخاذ إجراءات أكثر فاعلية للقضاء على زيري فأعلن الجهاد في المسجد الجامع بالزاهرة عقب صلاة الجمعة التاسع من شهر شعبان سنة

(١٨٩) مجهول: مفاخر البربر، ص ١١٨.
(١٩٠) مجهول: مفاخر البربر، ص١١٧؛ السلاوى: الإستقصا، ج٢، ص٢٦٩ .
(١٩١) مجهول: مفاخر البربر، ص ١١٨؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٥٥٧.

(٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) ثم سار إلى الجزيرة الخضراء في أعداد كبيرة من الجيش، وقد أسند قيادة الجيش إلى ابنه عبد الملك لما مكان يتمتع به من مهارة قتالية وسمعة طيبة في صفوف الجيش، وعبر عبد الملك وجيشه إلى مدينة سبتة لملاقاة زيري بن عطية سنة (٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) وبقي أبيه المنصور في الجزيرة الخضراء يراقب العمليات الحربية مستخلفا ابنه عبد الرحمن على الزاهرة(١٩٢).

شاع خبر وصول عبد الملك إلى زيري بن عطية فتأهب لملاقاته وكتب إلى جميع أنصاره من قبائل زناته يستنجدهم فأتته القبائل من سائر بوادي زناته، وخرج عبد الملك والفتي واضح من طنجة في جيش ضخم والتقي الجيشان (بوادي منى) من أحواز طنجة ودارت بينهم معارك عظيمة استمرت يوماً وليلة قتل فيها من الجانبين عدد كبير من الرجال وكان في معسكر زيري غلام أسود اسمه كافور بن سلام كان زيري قد قتل أخاه فوجد هذا الغلام الفرصة مواتية للانتقام من زيري واستطاع هذا الغلام الوصول لخيمة زيري وضرب زيري بسكين في نحره بثلاث ضربات لم تقتله، ثم أقبل الغلام مسرعاً إلى عبد الملك وبشره بقتل زيري فلم يصدقه عبد الملك إلى أن جاءه أحد أصحابه وأخبره أن زيري قد جرح جرحاً خطيراً، فهجم عبد الملك على جيش زيري وهزمه، واستولى على ما بيد زيري من مال وسلاح إلا أن زيري تمكن من الهرب وهو مجروح إلى مكان يعرف بمضيق الحية قرب مكناسة، وأجتمع حوله فلول قومه وعزم على العودة لمحاربة عبد الملك ولما علم بذلك عبد الملك بعث إليه الفتي واضح ومعه خمسة ألاف فارس، فصار واضح بجيشه وتوغل في جيش زيري على غرة في الليل وقتل منهم أعداداً كبيرة، وأسر من أشراف مغراوة نحو ألفي رجل وكانت تلك المعركة في منتصف

(١٩٢) مجهول: مفاخر البربر، ص ١١٩؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص٢٧٠ .

شهر رمضان سنة(٣٨٨هـ/٩٩٨م) ثم فر زيري مع نفر من أصحابه إلى مدينة فاس فأغلق أهل فاس أبواب المدينة في وجهه وكانوا قد علموا بهزيمته، فطلب زيري منهم أن يخرجوا إليه أسرته فأجابوا طلبه وسلموه أهله وزوده بالزاد والدواب، فأنصرف بهم إلى الصحراء قاصداً بلاد صنهاجة (١٩٣).

وبعد هزيمة زيري بن عطية دخل عبد الملك مدينة فاس يوم السبت نهاية شهر شوال سنة (٣٨٨هـ/٩٩٨م) وكتب إلى أبيه المنصور يبشره بالنصر، فقرأ كتاب عبد الملك على منابر الأندلس، وأعتق المنصور بهذه المناسبة ألف وثلاثمائة مملوكة أنثي وخمسمائة عبد وذلك من جملة صدقات كثيرة أعدها بمناسبة فتح المغرب، وقام بتولية ابنه عبد الملك على المغرب وأوصاه بحسن معاملة أهلها، ومكث عبد الملك بمدينة فاس ستة أشهر وعاد بعدها إلى الأندلس وكان أهل فاس قد أعجبوا بعدله وحسن معاملته لهم ثم تعاقب على حكم فاس في المغرب ولاة كثيرون بعد عودة عبد الملك إلى الأندلس فمنهم عيسي بن سعيد صاحب الشرطة إلى أن عزله المنصور (٣٨٩هـ/ ٩٩٩م)، وعين بدلا منه الفتي واضح(١٩٤).

وقد فر زيري بعد هزيمته في مضيق الحية هاربا كما ذكرنا إلى بلاد صنهاجة فوجد أهلها قد اختلفوا على ملكهم باديس بن منصور بن بلكين الصنهاجي صاحب، فزحف زيري بجيشه وتوغل في بلاد صنهاجة وهزم جيشهم ودخل مدينة تاهرت وبعض بلاد الزاب وتلمسان وشلف والمسيلة وأقام بها الدعوة للخليفة هشام المؤيد كما حاصر مدينة أشير قاعدة بلاد صنهاجة ثم كتب إلى المنصور بن أبي عامر يسترضيه ويطلب منه الأمان ويشترط على نفسه الرهن (ابنه وابن أخيه) والاستقامة والولاء إذا أعاده المنصور إلى حكم بلاد المغرب فعفا عنه

(١٩٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ٢٨٢؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٧١ .
(١٩٤) مجهول: مفاخر البربر، ص١٢١؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٧٢ .

المنصور وأعيد إلى ولاية على المغرب، وبينما كان زيري على حصار آشير انتفضت عليه جراحه القديمة فمات بسببها في شهر محرم (٣٩١هـ/١٠٠١م) فتولي حكم زناته بعده ابنه المعز بن زيري، كما أقره المنصور على ولايته للمغرب(١٩٥).

عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر يأخذ رهائن من زعماء المغرب:

اتبع عبد الملك سياسة أبيه المنصور الحازمة في العدوة المغربية مما جعل زعماء زناته يبايعونه ويدعون له مع الخليفة هشام المؤيد على منابر المغرب الأقصى كما سار عبد الملك على نهج أبيه في استخدام رجال زناته في جيشه(١٩٦)، وأحكم السيطرة على المغرب الأقصى وخاصة المناطق الساحلية الهامة فيه، وعمل على اكتساب محبة البربر وخاصة قبيلة زناته وذلك لكي يبعد تلك البلاد عن أطماع الفاطميين، بل الأمر ذلك وعمل على اكتساب بعض الزعماء الزيريين من قبيلة صنهاجة الموالية للدولة الفاطمية إلى جانبه وأحاطهم بالحفاوة والتكريم، وكان على رأس هؤلاء زاوي بن زيري الصنهاجي الذي عينه عبد الملك في خطة الوزارة(١٩٧) وفي سبيل إحكام قبضته على المغرب الأقصى مارس سياسة اتخاذ الرهائن.

حيث جدد البيعة للمعز بن زيري بن عطية (١٩٨) على حكم المغرب الأقصى سنة (٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م) على أن يؤدي إليه كل سنة مالاً معلوماً، وخيولاً وقدم المعز بن زيري ابنه معنصر

(١٩٥) مجهول: مفاخر البربر، ص ١٢٣، ١٢٤؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص٢٧٢ .
(١٩٦) العبادى: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٦٨.
(١٩٧) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج٢، ص ٦٤٧، ٦٤٨.
(١٩٨) وثيقة توضح تولية المعز بن زيري على المغرب الأقصى. أنظر وثائق الرسالة، ص ٣٢٤.

رهينة عند عبد الملك، وبذلك عاش المغرب الأقصى خلال عهد عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر في أمن واستقرار (١٩٩).

كما استمرت ولاية المعز بن زيري على المغرب الأقصى خلال حكم عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر في الأندلس وتوطدت العلاقات بينهم، فقد قدم المعز لعبد الرحمن بن المنصور هدية ثمينة فيها " خمسون فرساً "، وحينما وصلت هذه الهدية لعبد الرحمن أطلق سراح معنصر بن المعز وأعاده إلى أبيه في المغرب، فرد المعز على ذلك الصنيع بأن بعث إلى عبد الرحمن بهدية ثانية وكانت تلك الهدية " تسعمائة فرس " بعد مقتل عبد الرحمن بن المنصور ظل المعز بن زيري يحكم بلاد المغرب إلى أن توفي سنة (٤١٧هـ/١٠٢٦م) (٢٠٠).

(١٩٩) مجهول: مفاخر البربر، ص٨١.

(٢٠٠) مجهول: مفاخر البربر، ص١٣١؛ السلاوى: الإستقصا، ج١، ص ٢٧٧؛ عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج٢، ص ٥١٣، ٥١٤.

الرهائنُ السياسيونَ مع الممالكِ النصرانيةِ

الخليفةُ عبدُ الرحمن الناصر يستنقذُ زعماءُ بنو ذي النونِ من الرهنِ:

أثَّرتْ الفتنُ والتمردات الداخليةُ التي مرتْ بها الأندلسُ في النصفِ الأخيرِ من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي على قوةِ الأندلس ومواردها، وأخذتْ إسبانيا النصرانيةُ تتنفسُ الصعداءَ بعد أن أمنت الحملاتِ الإسلامية آنذاك، فأشتدَّ ساعدها ونمتْ مواردُها وتوطدتْ حكوماتُها ولم يأت القرن الرابع الهجري/ العاشرُ الميلادي حتى بلغت مملكةُ جليقيةَ مستوي عالياً من القوةِ يتيحُ لها أن تخوضَ مع الأندلس صراعاً عنيفاً، وقدْ بدأت تتوسعُ في ممتلكاتها واستولتْ على الأراضي الإسلامية القريبة منها بعد طرد المسلمين منها وإحلال مواطنيهم محلهم، فأصبحت هذه الأراضي مناطق الصراع بين اسبانيا الشمالية والأندلس، ولم تعُدْ القوةُ التي تجابهُ الأندلس في شمالها قوةً واحدةً متمثلةً بمملكة ليون، بل تعددتْ لتشمل مملكتي (نافار وقشتالة) اللتين كانتا تابعتين لمملكة ليون إداريا لكنهما استطاعتاً التحرر من هذه التبعية وأعلنتا استقلالهما لتصبحا قوي جديدة يحسب حسابها(٢٠١).

حاولَ الخليفةُ عبد الرحمن الناصر في بداية حكمه الإغضاء حيناً عن تصرفات الممالك الإسبانية الشمالية العدائية للتفرغ للجبهة الداخلية والتمردات التي شملت البلاد في الوقت الذي كانت فيه

(٢٠١) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٥٨٨، ٥٨٩؛ رجب عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، ص ١٦٣؛ عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص ٢٤٤، ٢٤٥؛ بدر: تاريخ الأندلس، ص ٥٦.

هذه الممالك تعمل على إذكاء عوامل الفتنة في الأندلس والإغارة على الثغور، فقد أغار ملك ليون أردونيو الثاني (٣٠١-٣١٢هـ/٩١٣-٩٢٤م) على مدينة يابرة[٢٠٢] سنة (٣٠١هـ/٩١٣م) وأباد حامية المدينة بأكملها وسبي أكثر من (٤٠٠٠) من النساء والولدان، فأثارت هذه الحادثة الرعب في المناطق الغربية من الأندلس فبدأت المدن بتقوية تحصيناتها وأسوارها[٢٠٣]، وفي سنة (٣٠٣هـ/٩١٥م) حاصر أردونيو الثاني مدينة ماردة ولكنه عجز أمام حصانتها فاسترضاه أهلها بالهدايا فتركها ورحل في أثناء سيره في المنطقة التي مر بها قتل وسبي الكثير من سكانها[٢٠٤]، فلم يعد بإمكان الخليفة عبد الرحمن الناصر الصبر على هذه الاعتداءات فقام بإرسال حملة للممالك النصرانية سنة (٣٠٤هـ/٩١٦م) بقيادة الوزير أحمد بن أبي عبدة، فالتقي بالنصارى وهزمهم في عدة مواقع وغنم منهم مغانم كثيرة[٢٠٥]، فأراد أردونيو الثاني الرد على هذه الهجمة فقام سنة (٣٠٥هـ/٩١٧م) بالهجوم على مدينة طلبيرة وأحرق قراها فضج سكانها طالبين العون من الخليفة عبد الرحمن الناصر، فسير لهم ويره وقائده أحمد بن أبي عبدة في جيش كثيف وزحف نحو شنت أشتبين، فضرب حولها الحصار وأسرع أردونيو الثاني بجموعه لنجدتها ونجح في هزيمة القائد أحمد بن أبي عبدة الذي رفض الانسحاب وصمد مع نفر من جنده المخلصين فاستشهدوا جميعا سنة (٣٠٥هـ/٩١٧م) [٢٠٦] وعمد أردونيو في العام التالي إلى الهجوم على الثغر الأعلى فعاث في أنحاء مدينة ناجرة، وتطلية، وتكررت هذه الهجمات فخلقت قلقاً عظيماً في بلاط قرطبة فقاد الخليفة عبد الرحمن الناصر

(٢٠٢) يابرة: مدينة قديمة من أعمال باجة، وتقع في غربي الأندلس في منطقة البرتغال الحالية. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٥، ص ٤٢٤؛ محمود شيت: قادة فتح الأندلس، ج١، ص ٧٠.
(٢٠٣) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص٩٣ - ٩٦.
(٢٠٤) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ١٢٠-١٢٣.
(٢٠٥) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ١٦٩؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ١٦٥.
(٢٠٦) ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ١٨٢؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٣٩٤.

حملة سنة (٣٠٨هـ/٩٢٠م) توجهت ناحية مدينة أوسمة (وخشمة) وأقتحم الحصون التي على نهر دويرة حتى وصل إلى قلهرة التي كان سانشو يتحصن بها ففر عند اقتراب الجيش الإسلامي الذي استولى عليها وعلى مدينة تطلية [٢٠٧].

لم تستأثر ليون وحدها بمقاومة المسلمين فقد كان لمملكة نافار نصيبها أيضاً من هذه العلاقات العدائية، ففي سنة (٣١١هـ/٩٢٣م) قام ملك نافار سانشو الأول (٢٩٣-٣١٤هـ/٩٠٥-٩٢٦م) بالهجوم على مدينة بقيرة[٢٠٨]، فحاصرها واستولى عليها، وأسر العامل عليها محمد بن عبد الله بن محمد بن لب، والعديد من علماء المدينة، وسجنهم في بنبلونة ثم قتلهم جميعاً ماعدا مطرف بن موسي بن ذي النون الذي استطاع الفرار، فاستاء الخليفة عبد الرحمن الناصر من هذه الفعلة وأرسل حملة بقيادة وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى حتى يتم هو تهيئة حملة كبيرة لتأديب النصارى، فوصل الوزير ابن بسيل إلى مدينة تطلية واتخذها قاعة عسكرية يرسل منها الحملات إلى أراضي نافار حتى أوقع بهم وهزمهم في عدة وقائع[٢٠٩].

وما أن أتم الخليفة عبد الرحمن الناصر أهبته حتى غادر مدينة قرطبة قبل ميقات الصوائف سنة (٣١٢هـ/٩٢٤م) في جيش جرار وهو يعتزم التنكيل بالنصارى والانتقام لوقعة المسلمين بقيرة، وتوجه الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى مدينة قلهرة وقام بحرقها، واستولى على حصن بيطرالتة أو قنطرة البه كما يسميها ابن حيان[٢١٠]، وباقي الحصون التي حوله كحصن فالجش

(٢٠٧) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ١٥٩؛ ابراهيم بيضون: الولة العربية، ص٣٠٠.
(٢٠٨) بَقِيرة: بالفتح ثم الكسر مدينة في شرقي الأندلس معدودة في اعمال تطيلة بينهما أحد عشر فرسخا. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج١، ص ٤٧٣.
(٢٠٩) ان حيان: المقتبس، ج٥، ص١٨٦-١٨٩.
(٢١٠) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ١٩١.

وحصن قرقشتال الواقع شمال شرقي مدينة تطلية وهدم سائر القلاع في تلك المنطقة وأحرقها، وزحف نحو نافار وأحرق عاصمتها بنبلونة ودمر تحصيناتها وهزم ملك نافار الذي تحالف مع ملك ليون ورجع الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى قرطبة في الثاني والعشرين من جمادي الأولي سنة (٣١٢هـ/ سبتمبر ٩٢٤م) بعد أن استمرت غزوته التي تسميها المصادر (غزوة بنبلونة) أربعة أشهر(٢١١).

ونجد أن الإمارات النصرانية في الشمال لم تكف عن الغارات العدائية على الأندلس، حيث أنه بعد أن استقر ملك ليون لراميرو الثاني (٢١٢) استأنف الصراع القديم ضد المسلمين، وكان يري أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة في المملكة الإسلامية هو خير السبل إلى تبديد قوي المسلمين، وشجع راميرو بدسائسه ووعوده، زعماء مدينة طليطلة على التمادي والثورة على الخليفة عبد الرحمن، وشن الغارات على الأندلس وأحتل مدينة أوسمه سنة(٣٢١هـ/٩٣٣م) فاستردها الناصر بنفسه سنة (٣٢٢هـ/٩٣٤م) (٢١٣).

وشجعت القوي النصرانية كل حركات الخروج والثورة ضد الخلافة الأموية، فكانوا يمدون يد العون لمحمد بن هاشم التجيبي المنتزي بسرقسطة، فغزا الخليفة عبد الرحمن الناصر بقواته أراضي

(٢١١) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٤١٩١ ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص٤١٨٦ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٠٠.

(٢١٢) وتوفي الملك أردونيو الثاني ملك ليون سنة (٣١١هـ/٩٢٣م) ودخلت مملكة ليون في حالة من الفوضى، فقد انفجر الصراع بين ولديه سانشو والفونسو حول تولي الحكم وأنتهي هذا التنافس بتولي ألفونسو العرش بمساعدة صهره ملك نافار سانشو الأول، لكن سانشو لم ييأس فجمع جيشاً من أنصاره وتوجه نحو (شانت ياقب) وأعن نفسه ملكاً عليها، وحاول مراراً الاستيلاء على ليون ولكنه فشل، وأستمرت هذه الحرب أعواماً بين الأخوين انتهت بوفاة سانشو بن أردونيو الثاني سنة (٣١٧هـ/٩٢٩م) فأستقلر الملك لأخيه الفونسو الرابع، لكن هذا الإستقرار كان مؤقتاً فقد بدأ الصراع مجددا سنة (٣١٩هـ/ ٩٣١م) حيث تنازل ألفونسو الرابع عن الحكم لأخيه الأصغر راميرو ثم ترهب حزنه الشديد على زوجته التي توفيت فألتجأ إلى عزلة الدير، ولكنه سرعان ماندم على تنازله عن الحكم فترك عزلة الدير وطالب أخاه بالعرش ودخل في صراع شديد مع أخيه وانتهي هذا الصراع بقيام راميرو بسمل عين أخيه الفونسو سنة (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٣٤٥، ٣٤٧؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٤١٤٢ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ٤٠١ .

(٢١٣) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٠١.

بنبلونه عاصمة نافار سنة(٣٢٢هـ/٩٣٤م)، وهي أقرب الجهات إليه، فوفدت علية رسل الملكة (طوطة ابنة ايشيز ملكة نافار) التي قامت بالأمر بعد وفاة زوجها سانشو ملك نافار(٢٩٣- ٣١٤هـ/٩٠٥-٩٢٦م)، تسأله عقد الصداقة والسلم[٢١٤] فلم يرفض الناصر طلبها بل رحب به فوفدت إليه ومعها وجوه من رجالها وقواميسها وأساقفتها فاستقبلها الناصر وهو بمدينة " قلهره"[٢١٥] (Calahorra) وتحيط به جيوشه الكثيفة فأحسن الناصر استقبالها وأكرم منزلتها، وقد تعهدت الملكة (طوطة) للناصر بما يلي:

- الالتزام بالطاعة
- الابتعاد عن محالفة اي ملكٍ أو أميرٍ نصراني.
- كف الأذي عن المسلمين.
- معاونة قواد الثغر الأعلى في محاربة كل من خرج عن الطاعة.
- أن تخلي سبيل رهائن بنو ذي النون.

ويذكر ابن حيان كذلك معلومات أوفر عن هؤلاء الرهائن حيث يبين أنهم أصبحوا رهائن وذلك" بما قد عجزوا عن إحضاره" [٢١٦]، فنستدل أن هؤلاء الرهائن كانوا أسرى عند مملكة نافار، وأصبح فك أسرهم مرهون بمطالب عجز بنو ذي النون عن تنفيذها.

وكان عدد المرتهنين من بني ذي النون أربعة رجال ليحيي بن الفتح منهم ولدان ولابنه ولابن عمه ولد واحد وفعلاً تم إطلاق سراحهم ليعودوا إلى موطنهم تحت ظل الخليفة، وسجلَ الناصر

(٢١٤) ابن حيان: المقتبس، ج ٥، ص ٣٣٥؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٠٢.
(٢١٥) قَلْهُرَّه: بفتح أوله وثانيه وضم الهاء وتشديد الراء وفتحها مدينة من أعمال تطيلة في شرقي الأندلس، وهي من المدن الشديدة الحصانة وكانت تؤخذ وتسترد دائما في الصراع بين المسلمين ونصاري مملكة نبرة ويصنفها = = البكري ضمن إقليم طركونه. البكري جغرافيا الأندلس، ص ٦٢؛ ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٤، ص ٣٩٣؛ ارسلان: الحلل، ج٢، ص ١٧٦.
(٢١٦) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٣٣٦؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص٢٦٥.

ما تعهدت به وأشهد الشهود على ذلك كما أقر الناصر ابنها غرسية على بنبلونه وأعمالها ثم رجعت الملكة ورجالها إلى البلاد محملين بالهدايا القيمة (٢١٧).

وكان لحرص الخليفة عبد الرحمن الناصر على إطلاق رهائن بني ذي النون أثر كبير في نفوسهم فكانوا يقدرون كل ما تقدمه الدولة من أجلهم وتمسكوا بخدمتها، وكان لهم دور كبير في الجهاد ضد النصارى (٢١٨).

سفير أوتو (إمبراطور ألمانيا) رهينة بيد عبد الرحمن الناصر:

كانت أهم السفارات التي تلقاها الخليفة عبد الرحمن الناصر هي سفارة أوتو الأكبر (٣٢٥-٣٦٣هـ/٩٣٦-٩٧٣م) (٢١٩) إمبراطور ألمانيا، وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية، كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام. وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة في غموض وإيجاز، وتصف أوتو بملك الصقالبة أو ملك " اللمان" وتسميه" هوتوا " أو" هوتو، وتتفق مع الرواية الفرنجية في تاريخ هذه السفارة سنة (٣٤٤ هـ/٩٥٦م) "(٢٢٠)

حيث وفد على قرطبة سفير أوتو وهو حبر يدعى يوحنا الجورزيني نسبة إلى الدير الذي ينتمي إليه في جورزني على مقربة من متز، وكان يوحنا من أكابر العلماء، والظاهر أنه قد وقعت

(٢١٧) ابن جيان: المقتبس، ج٥، ص ٣٣٦؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص٤٠٢.
(٢١٨) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص ٤٨٤؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ١٤٥.
(٢١٩) أوتو الكبير: تولي عرش المانيا وهو في الرابعة والعشرين من عمره، ونجح أوتو نجاحاً كبيراً في سياسته الداخلية والخارجية حتى أطلق عليه معاصروه أوتو الكبير. محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٠م، ص١٩١.
(٢٢٠) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٨؛ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

فعلا قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية، وأن الناصر قد عرض في بعض رسائله بالنصرانية وتعاليمها، فألفي أوتو الفرصة سانحة لأن يدافع سفيره قضية النصرانية لدي خليفة قرطبة بيد أنه يبدو من أقول الروايات الكنسية أن هذه المهمة الجدلية، لم تكن إلا مهمة ثانوية إلى جانب موضوع سفارته الأصلية، وأن مهمته الحقيقية كانت تتعلق بشأن توغل المستعمرات العربية المغامرة، في جنوبي فرنسا وسويسرا، وعيثها في تلك الأنحاء، بصورة تبث الرعب والروع إلى كثير من المدن، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذي تنتمي إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية، لوقف عدوانها، وقدم يوحنا إلى قرطبة ومعه طائفة نفيسة من الهدايا برسم الخليفة، فاستقبل بحفاوة، وأنزل في إحدى الدور الرسمية، ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته، ولم يقبل بالأخص أن تكون المسائل الدينية موضوع جدل بينهما، ولما ألح يوحنا في طلب المقابلة والمحادثة، أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولا أسقفاً إلى أوتو فاعتقله مدة ثلاثة أعوام، وأنه سيعتقله أي يوحنا، أضعاف هذه المدة، لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية، وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك الألمان رسولا آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه، وأن يبقي يوحنا معتقلا حتى يعود السفير، واختار لهذه السفارة قس من رعاياه هو ربيع أو ريفا الأسقف، وكان عالماً متمكناً يشغل في البلاط منصباً هاماً، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ومثل لدي الإمبراطور أوتو في تورنجن، وكان أوتو يجوز يومئذ بعض المتاعب الداخلية من جراء ثورة ولده عليه، فأبدي تساهلا في قبول وجهات نظر الخليفة، وأكرم مثوي سفيره، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة، بعد سنتين من سفره (٣٤٧هـ/٩٥٨م). فارتاح الناصر لنتائج سفارته، وأذن برؤية يوحنا سفير الإمبراطور، واستقبله بقصر قرطبة في احتفال فخم، وأفضي إلى الخليفة بموضوع سفارته، ولسنا نعرف ماذا

كانت نتائج هذه السفارة، لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها (٢٢١)

ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة لسفير الإمبراطور، فيما يتعلق بأمر المستعمرات العربية المغامرة، وغزواتها في غاليس وشمالي إيطاليا وسويسرا، أنها ليست لها علاقة بتلك المستعمرات، وأنها لا تتحمل تبعة أعمالها، ولا تستطيع أن تتدخل في شأنها، أو تبذل نصحها لأولئك المغامرين الخارجين عن طاعتها، وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات، مما يدل على أن حكومة الأندلس، لم تكن ذات علائق رسمية بها، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها وتوغلها في الأراضي النصرانية، بعين العطف والرضى. ولكن لوتبراند وهو مؤرخ كنسي معاصر، يؤكد لنا أن الخليفة كان يحمي هذه المستعمرات، ويمدها بالتشجيع والعون (٢٢٢).

والذي يهمنا في هذا الموضوع أن الخليفة عبد الرحمن الناصر احتجز سفير أوتو الحبر يوحنا الجورزيني في قرطبة، وأصبح رجوعه إلى دياره مرهونا برجوع رسول الخليفة عبد الرحمن الناصر المحتجز منذ ثلاث سنوات عند الإمبراطور أوتو الأول.

(٢٢١) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج، ص٤٥٦، ٤٥٧.
(٢٢٢) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج، ص٤٥٨.

رهائن الصراعات الخارجية في عهد الخليفة الحكم المستنصر:

لم تكن لدي الخليفة المستنصر مشاكل داخلية ذات أهمية بعد أن سحقت جميع التمردات والفتن في عهد أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر، لذلك كان همه موجها نحو الأخطار الخارجية.

ولقد سبقت الإشارة إلى أن الخليفة عبد الرحمن الناصر قد أعان الملك سانشو الأول على استرداد عرش ليون مقابل أن تسلم بعض الحصون للخليفة عبد الرحمن الناصر لكن ما أن توفي الناصر سنة (٣٥٠هـ/٩٦٢م) حتى رفض سانشو الأول تنفيذ الاتفاق عندما طالبه الخليفة الجديد بذلك بعد أن استقامت له الأمور وشعر بقوته[٢٢٣]، فاستفاد الملك المخلوع أردونيو الرابع من توتر العلاقة بين سانشو الأول وحكومة قرطبة فأقدم على الوفود على الخليفة الحكم المستنصر طالبا منه المساعدة على استرداد عرش ليون فاستقبله الحكم بحرارة وأحاطه بمظاهر الحفاوة الملكية ووعده خيراً، وكان أردونيو الرابع على جانب من الدهاء والقدرة على استغلال المواقف ولم تكن زيارته لضريح الناصر أثناء وجوده في قرطبة وإظهار الاحترام والتقدير لروح الخليفة الراحل إلا مظهرا من مظاهر الدهاء والمرونة، وتعهد للخليفة الحكم بأن يضع نفسه وبلاده تحت رعاية الخليفة الحكم المستنصر وأن يقدم ولده غرسيه رهينة لوفائه[٢٢٤]، وبعد أن اطمأن على تحقيق أغراضه عاد من حيث أتى.

(٢٢٣) إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص ٣١٨.

(٢٢٤) ابن خلدون: تاريخه، ج ٤، ص١٨٦؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص٣٠٢، ٣٠٣؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٨٥.

لقد أفقدت زيارة أردونيو الرابع للحكم المستنصر صواب ملك ليون سانشو فسارع إلى تحسين موقفه بإرسال وفد من أكابر مملكته وأحبارها إلى الخليفة الحكم يعلنون فيه خضوع ليون لحكومة قرطبة واستعدادها لتنفيذ ما تعهد به ملكها للناصر من قبل(٢٢٥)، خاصة بعد أن اضطربت أحوال مملكته بعد قيام أهالي قشتالة بالثورة ضد تسلط ليون عليها وإعلان زعيمهم فرنالد جونتالث للاستقلال بقشتالة وتنصيب نفسه ملكا عليها(٢٢٦)، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان إذ توفي أردونيو الرابع نهاية سنة (٣٥١هـ/٩٦٢م) فنقض سانشو الاتفاق مع الحكم مرة أخرى(٢٢٧)، وعقد عدة محالفات مع قشتالة ونافار لتقوية مملكته، فخرج إليه الحكم المستنصر بالصائفة سنة(٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) وحاصر قلعة شنت أشتبين التي سميت الغزوة باسمها، واستولى عليها ونجحوا في هزيمة قوات قشتالة بقيادة لكونت فرنان جونالث ومزقت قواته فأضطر إلى طلب الصلح(٢٢٨).

وأرسل الحكم جيشا بقيادة يحيي بن محمد التيجيبي حاكم سرقسطة باتجاه نافار وكانت ملكها غرسيه سانشيز بن الملكة طوطة قد أغار على الأراضي الإسلامية ناقضا للعهد، فعاث في أراضيهم وحاول الملك سانشو إنقاذ نافار بقواته فأشتبك الفريقان في معركة هزم فيها النصارى وامتنعوا بالجبال، وكانت تهاجم نواحي نافار الغربية في الوقت نفسه قوة إسلامية أخرى بقيادة غالب الناصري ونجح في افتتاح مدينة قلهرة وحصنها وشكها بالرجال والعتاد، وقد شغلت هذه الحملات الأعوام من سنة (٣٥٢-٣٥٣هـ/ ٩٦٣-٩٦٤م) (٢٢٩).

(٢٢٥) ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص١٨٧؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٨٦.
(٢٢٦) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٥٤٣ .
(٢٢٧) بدر: تاريخ الأندلس، ص٦٦، ٦٧.
(٢٢٨) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص٢٣٦؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٨٦.
(٢٢٩)ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص١٨٦؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٨٧.

وفي خلال هذه الفترة توفي ملك ليون شانجة الأول سنة (٣٥٥هـ/٩٦٦م) مسموما[٢٣٠] وخلفه على العرش ابنه رذمير الثالث الذي كان تحت وصاية عمته (البيرة) كما توفي أيضا الكونت فرنان جونثالث سنة (٣٥٩هـ/ ٩٧٠م) وتولي الحكم بعده ابنه غرسيه فرناندز فيما تولي عرش نافار سانشو غرسيه الثاني بعد وفاة والده غرسيه سانشيز فكان لهذه الأحداث تأثيرٌ كبيرٌ على إسبانيا النصرانية حيث أنها أنهت التحالف الذي كان قائما بين هذه الممالك، وشجعت على قيام الكثير من الإمارات المستقلة مما أدي إلى اتساع الخلاف بين الأمراء الإسبان فتوالت وفودهم على بلاط قرطبة التي بسطت سيادتها السلمية على سائر إسبانيا، وكفلت بذلك السكينة العامة[٢٣١].

والملاحظ أن الخليفة الحكم المستنصر لم يتخذ رهائن من نصارى الشمال رغم كثرة السفارات [٢٣٢] التي جاءت إلى قرطبة تطلب السلم والمصالحة وذلك يبرر بأن الخلافة الأموية في الأندلس وصلت إلى درجةٍ كبيرةٍ من القوة العسكرية تمكنها من استخدام الردع المسلح في أي مكان وفي أي وقت، ولأنها تخلصت من مشاكلها الداخلية وأصبحت مسيطرة على جميع أراضيها فلم يكن الحكم المستنصر في حاجة لاتخاذ رهائن.

والغزوات في عصر الخلافة على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر أخذت طابع القوة والهجوم مما جعل تلك الممالك والإمارات النصرانية تخشي قوة الخلافة، ومع ذلك لم يكن الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر يخطط في غزواته للاستيلاء

(٢٣٠) قام بقتله لكونت جوندسالفو (غندشلب) سانشيز حاكم جليقية حيث دعاه إلى مأدبة أقامها وقدم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامره الريب، وسرعان ما شعر بالموت، فحمل إلى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ودفن بها تحقيقاً لرغبته، وكان ذلك في سنة (٣٥٦هـ/٩٦٦م). عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص٥٩٦.

(٢٣١) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٨٩، ٤٩٠.

(٢٣٢) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٤٩٠، ٤٩١.

على أراضي النصارى، وإنما كانت غزواته تستهدف إظهار قوة جيش الخلافة وإرهاق الممالك النصرانية لتدفعها إلى المسالمة والتخلي عن أراضي المسلمين (٢٣٣)

ولم يرد ذكرٌ لاتخاذ الرهائن في عهد المنصور بن أبي عامر مع الممالك النصرانية في اسبانيا، إذ كانت العلاقات بينهم علاقة حرب طوال حكمه إذ كان يغزو في السنة الواحدة مرتين تعرف الأولي بالصائفة وتعرف الثانية بالشاتية، وقدر عدد غزواته بأكثر من اثنين وخمسين غزوة خرج منها منتصراً، وكان المنصور بن أبي عامر يري أن غزوه للممالك النصرانية يدعم سلطانه في الدولة ويردع بها إسبانيا، ويكف عدوانها على الأراضي الإسلامية (٢٣٤).

مجاهد العامري يفدي ابنه علي المرهون في سردانية:

بعد مقتل عبد الرحمن بن المنصور الملقب بشنجول سنة(٣٩٩هـ/١٠٠٩م)(٢٣٥)، غادر معظم الفتيان الصقالبة قرطبة، فراراً من اضطهاد العهد الجديد، وقصدوا إلى شرقي الأندلس، حيث كانت الأحوال أهدأ وأكثر استقراراً، وكان منهم عدة من الفتيان الفحول والخصيان الأذكياء ذوي الإقدام والعزم مثل مجاهد العامري الذي غلب على مدينة دانية(٢٣٦) والجزائر

(٢٣٣) عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسي، ص ٢٩٨، ٢٩٩.
(٢٣٤) الحميدى: جذوة المقتبس،ص ٧٩؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٥٧٢.
(٢٣٥) ابن سعيد: المغرب، ص٢١٣؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج، ص ٢٧٠؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٦٢٣-٦٣٧.
(٢٣٦) دانِيَة: بعد الألف نون مكسورة بعدها ياء مثناة من تحت مفتوحة، تقع شرق الأندلس وهي من أعمال بلنسية وتقع على ضفة البحر شرقا. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٢، ص٤٣٤؛ الحميرى: الروض المعطار، ص٢٣١، ٢٣٢.

الشرقية[٢٣٧]، وأخذ يفكر في مشروع ضخم ربما كان أعظم مشروع فكر فيه أمير من أمراء الطوائف ذلك هو غزو جزيرة سردانية[٢٣٨] وافتتاحها[٢٣٩]، فجدد دار الصناعة القديمة التي كانت بدانية، واستكثر من السفن والمعدات الحربية واستطاع في فترة قصيرة إن ينشئ أسطولا كبيراً يرابط في مياه دانية والجزائر[٢٤٠]، ووضع خطةً للاستيلاء على جزيرة سردانية فحشد أسطولا قوامه مائة وعشرين سفينة[٢٤١] وقوة من ألف فارس وأقلعت السفن الغازية من دانية في ربيع الأول سنة (٤٠٦هـ/١٠١٥م)، وكانت المسافة بين مياه دانية والجزائر وبين سردانية، يومئذ تستغرق ثمانية أيام[٢٤٢]، ما كادت سفن مجاهد العامري ترسو على شواطئ الجزيرة حتى شق جنوده طريقهم إلى الداخل بمنتهي القوة ووقعت بينهم وبين أهل الجزيرة معارك دموية هائلة قتل فيها عدد جم، وأسروا جموعاً غفيرة وسبوا كثيراً من النساء والأطفال واستطاعوا أن يحتلوا معظم أراضي الجزيرة وأن يسيطروا على معظم حصونها بالرغم من المقاومة العنيفة التي لقوها[٢٤٣].

(٢٣٧) الجزائر الشرقية: هي عدة جزر تقع أمام الساحل الشرقي لأسبانيا وأهمها ثلاثة جزر هي: ميورقة majorca ومنورقة minorca ويابسة ibiza وتسمي في المصادر العربية بالجزر الشرقية، خضعت لنفوذ قرطبة سنة (٢٣٤ هـ /٨٤٨م) في عهد الأمير عبدالرحمن الثاني الأوسط الأموي غير أنها لم تضم نهائيا بواسطة عمال الدولة الأموية بالأندلس إلا منذ سنة (٢٩٠هـ /٩٠٢م) حينما أرسل إليها الأمير عبدالله بن محمد قائده عصام الخولاني حاكما عليها وظلت في يد المسلمين إلى أن احتلها ملك أراجون خايمي الأول (٦٢٨- ٦٨٦هـ/١٢٣٠-١٢٨٧م). الحميرى: الروض المعطار، ص٥٤٩، ٥٧٦؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٦، ص ٤٣٨؛ عصام سالم: جزر الأندلس المنسية، دار العلم للملاين، بيروت١٩٨٤، ص١٥- ١٨.

(٢٣٨) جزيرة سردانية: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم دال مهملة وبعد الألف نون مكسورة وياء آخر الحروف، جزيرة على طرف من البحر الشامي، وهي كبيرة النظر كثيرة الجبال قليلة المياه، طولها مائتان وثلاثون ميلاً وعرضها من الغرب إلى الشرق مائة وثمانون ميلاً، وأهل سردانية في الأصل روم وهم أهل نجدة وحزم لا يفارقون السلاح. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٣، ص ٢٠٩؛ الحميرى: الروض المعطار، ص ٣١٤، ٣١٥.

(٢٣٩) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٣، ص١٥٥؛ السامرائي آخرون: تاريخ العرب، ص٢٤٥.

(٢٤٠) السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص٤١٤.

(٢٤١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٤، ص ٢٧٢.

(٢٤٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٤، ص ٢٧٢؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢١٩ .

(٢٤٣) ابن خلدون: تاريخه، ج١، ص ٣١٥؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٣، ص١٩١.

وهكذا فَتَحتْ جزيرة سردانية على يد مجاهد العامري سنة (٤٠٦هـ/١٠١٥م)، الذي قرر البقاء فيها حتى يوطد مركزه بها، واختط بها مدينة واسعة شرع في بنائها وانتقل إليها بأهله وولده[٢٤٤]، ولبث مجاهد العامري في سردانية حتى نهاية سنة (٤٠٦هـ/١٠١٥م) أي نحو عشرة أشهر وفي خلال ذلك كانت البابوية والدول الإيطالية القريبة قد اهتزت لهذا الحادث الخطير وزاد في روعها وسخطها ما عمد إليه مجاهد من الإغارة بسفنه على الشاطئ الممتد بين جنوه[٢٤٥] وبيزا، وهما يومئذ أقوي المدن البحرية في هذه المياه ولكلتيهما مصالح تجارية عظيمة تحرص على حمايتها، وفي الحال أعلن البابا بندكت الثامن (٤٠٣-٤١٥هـ/١٠١٢-١٠٢٤م)، الحرب الصليبية وعقد تحالفاً مع مدينتي جنوه وبيزا على محاربة المسلمين وطردهم من الجزيرة، فأخذ مجاهد العامري يبذل جهده في تحصين جزيرة سردانية للدفاع عنها، ولما قدمت سفن جنوه وبيزا والسفن النصرانية، قاومه أهل الجزيرة من الداخل وتمرد الجند المرتزقة النصارى في أسطوله، وواجه العواصف القاصفة، هذه الأمور كلها فتت في عضده وحطمت خطط دفاعه فلم يقوي طويلا على المقاومة وأصابته السفن النصرانية بهزيمة فادحة[٢٤٦]، وتحطمت معظم سفن مجاهد، ومنها ما أسر ومنها ما أغرق، وقتل معظم أصحابه، واستولى العدو على سائر غنائمه وسبيه وعلي أهله وحريمه وولده وفيهن نساؤه وبناته وعلي ولده (علي)، ولم ينج من أسطوله الضخم سوي بضع سفن شقت به عرض البحر مسرعة وبذلك ووقعت هذه الهزيمة الساحقة على مجاهد العامري سنة(٤٠٧هـ/١٠١٦م)[٢٤٧].

(٢٤٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢١٩.

(٢٤٥) جنوة: مدينة قديمة في شمال غرب إيطاليا على البحر المتوسط تقع على الخليج المسمى باسمها. وهي إحدى المدن التجارية الهامة، أنشئت سنة (٧٠٧ ق.م) واتخذت المدينة التجارة مهنة لها ونافست جمهوريتي (بيزا) و (البندقية) وأصبحت سيدة البحار الشرقية إلى أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادى. الحميرى: الروض المعطار، ص٤٤٣ عبد الله عنان: دولي الإسلام، ج٣، ص ١٩٢.

(٢٤٦) السامرائي آخرون: تاريخ العرب، ص٤١٥.

(٢٤٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٤، ص ٢٧٢؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢١٩.

وهكذا تحطم هذا المشروع الضخم، الذي كان في الواقع أضخم من مقدرة أمير من أمراء الطوائف، وكانت الدول النصرانية كلها تتحفز لحماية هذه الجزائر كي تمنع انسياب الأساطيل الإسلامية إلى المياه الإيطالية، وكان في تفوق الجمهوريات الإيطالية البحري في هذه الفترة ما يكفل تحقيق هذه الغاية (٢٤٨).

رجع مجاهد العامري إلى مملكته وعمل على تنظيم شئونها والعمل على النهوض من عثرته، وكانت محنته يومئذ أسر ولده وأهله في سردانية، وقد استطاع أن يفتدي زوجته وبناته وإخوته في مدة قريبة ورفضت أمه وكانت نصرانية العود إليه وكذلك أختها، وآثرتا العيش مع النصارى فأعرض عنهما، وبقيت مشكلة ولده على وكان وقت أسره في سردانية سنة(٤٠٧هـ/١٠١٦م) طفلا في السابعة من عمره، وكان وحيده يومئذ، وقد رفض السرادنة كل عرض لافتدائه وأخفق كل مجهود بذله مجاهد لرده، ومضت الأعوام والغلام يعيش في الأسر بين النصارى يربي على دين النصرانية ويتحدث لغتهم، وأخيراً وفق مجاهد إلى إقناع السرادنة بقبول افتدائه وإطلاق سراحه وذلك بعد عشرة أعوام من أسره سنة (٤١٧هـ/ ١٠٢٦م)(٢٤٩)، وكانت وجهة نظر السرادنة في احتجاز الغلام على هذا النحو هي استبقاؤه رهينة ثمينة لمنع مجاهد من القيام بأية مغامرة أخرى ولم يرتضوا إطلاق سراحه إلا بعد أن دفع لهم مجاهد فدية هائلة وقطع على نفسه أوثق العهود بأن يتركهم في سلام وألا يعود إلى إزعاجهم(٢٥٠).

(٢٤٨) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٤، ص ١٩٣.

(٢٤٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٤، ص ٤٢٧٢؛ابن عذارى: البيان المغرب، ج٣، ص١٥٥؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢١٩.

(٢٥٠) عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٣، ص ١٩٥.

وخرج على من الرهن وهو فتي يتكلم بلسان "الروم" ويتزيا بزيهم ويعتنق دينهم، فلما وصل إلى دانية عرض عليه أبوه الإسلام، فقبله وحسن إسلامه وعني مجاهد بتأديبه وتثقيفه وكان قبل افتدائه من الأسر قد اختار لولاية عهده ولده الأصغر حسن الملقب بسعد الدولة، ولكنه عدل عن هذا الاختيار لما آنسه في ولده الأكبر على من مخايل الشجاعة والذكاء والعزم فقدمه على أخيه الأصغر وعينه لولاية عهده، وعهد إليه بقيادة الجيش وكان لذلك فيما بعد أثره في توتر العلاقات بين الأخوين (٢٥١).

وهكذا حقق اتخاذ على بن مجاهد العامري رهينة عند السرادنة مقاصده حيث لم يرد أن قام مجاهد العامري بغزوهم مرة أخرى منذ رجوع ابنه إليه.

الرهائن السياسيون في عصر ملوك الطوائف

حينما تردت الحالة السياسية في بلاد الأندلس وعجزت دولة بني أمية عن السيطرة على الوضع هناك أُعلن في ذي الحجة سنة (٤٢٢هـ/١٠٣٠م) إلغاء الخلافة الأموية، وهكذا انفرط عقد الوحدة بين مسلمي الأندلس، فبعد أن كانوا يخضعون لمظلة دولة إسلامية واحدة، وكيان سياسي موحد يمتد من نهر دويرة شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن البر المتوسط

(٢٥١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢٢١؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٣، ص٢٠٠-٢٠٢ .

شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً تناثر هذا الكيان إلى أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة[٢٥٢]، وقد بلغت في مجموعها ست وعشرين دولة[٢٥٣]، وفي هذا يقول المراكشي " وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بني أمية: إن أهلها تفرقوا فرقاً، وتغلب في كل جهة منها متغلب[٢٥٤]، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه، وتقسموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمي بالمعتضد، وبعضهم تسمي بالمأمون، وآخر تسمي بالمستعين، والمقتدر، والمعتصم، والمعتمد، والمتوكل"[٢٥٥] .

ولقد كان لهذه الدول ثلاث اتجاهات عصبية هي البربر في الجزء الجنوبي والصقالبة في شرق الأندلس، أما باقي الأندلس فكان تحت حكم العرب[٢٥٦]، وبالرغم من ضعف هذه الكيانات فلم تكن متعاونة مع بعضها البعض، أو ساعية لتحقيق مصلحة المسلمين، بل كانت المنافسة والأطماع الشخصية هي السمة المميزة في علاقاتها فيما بينها، وقد صور ابن الخطيب تلك الحالة بقوله " وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة، مالم يجعله الله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم في الله يد ولا نشأ على التعاضد عزم "[٢٥٧]، وقال عنهم ابن دينار " إنما أهلكهم التحاسد واختلاف الكلمة"[٢٥٨]

(٢٥٢) المقري: نفح الطيب، ج١، ص ٤٣٨؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص ٦٧٦، ٦٧٧.
(٢٥٣) رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية، ص٢٧٢.
(٢٥٤) خريطة توضح دول الطوائف في الأندلس، أنظر ملاحق الرسالة، ص٣٣٣.
(٢٥٥) المراكشي: المعجب، ص ١٠٥.
(٢٥٦) لمزيد من التفاصيل أنظر: عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٣، ص١٥؛ أحمد مختار العبادى: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص٨٩-٩٦.
(٢٥٧) الصلابى: فقه التمكين عند دولة المرابطين، ص٨٢.
(٢٥٨) ابن دينار: المؤنس، ص ١٠١.

واتسمت العلاقة بين هذه الدويلات بالعداء الشديد والتصارع المستمر مما أدي إلى إنهاك قوتها (٢٥٩)، في الوقت نفسه كانت قوي النصارى في الشمال تتوحد تحت قيادة سياسية واحدة (٢٦٠) وكان النصارى يستغلون انشغال الدويلات الإسلامية في حروبها الداخلية فيهاجمون المناطق الحدودية ويسيطرون عليها فتتوسع الممالك النصرانية على حساب الدويلات الإسلامية الأندلسية (٢٦١).

ولقد أرتبط بحالة النزاعات بين هذه الدويلات عامل كان له أسوأ النتائج على الأندلس ألا وهو دخول الدويلات الأندلسية المتنازعة في سلسة من التحالفات مع القوات النصرانية الشمالية، ويقوم هذا التحالف على استعداد إحدى الدويلات لدفع كل ما تحتاجه القوات النصرانية من أموال مقابل الهجوم على دويلة أخرى متنازع عليها (٢٦٢).

ولقد أطلق المؤرخون على عصر الطوائف تسميات عدة تدل على الضعف العام الذي مني به مسلمو الأندلس في ذلك العصر، فقد أطلق على زعماء ذلك العصر ملوك الطوائف (٢٦٣)، وعصر الفتنة (٢٦٤)، كما أطلقوا على مؤسسي هذه الكيانات لقب: وأمراء الفرقة الهمل (٢٦٥). وهذا الواقع يدل دلالة واضحة على الحال الذي وصلت له الأندلس، وهذا الحال لم يكن خافياً على العدو النصراني المتربص، ولاسيما ألفونسو السادس ملك قشتالة الذي كان يدرك حقيقية ذلك الواقع، وهذا ما جعله يرسم الخطط، ويضمر النيات للاستفادة من تلك الفوضى السياسية

(٢٥٩) عودات: تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٧.
(٢٦٠) توحدت الدويلات النصرانية على يد الملك سانشو وخلفه ولده فرديناند الذي وجه إهتمامه إلى السيطرة على المناطق الإسلامية وبعد وفاته (٤٦٣هـ/ ١٠٦٥م) إنقسمت الدولة بين أبنائه، لكن إلفونسو السادس تمكن من توحيدها من جديد وتقترب من البابوية في روما لدعمه في حربه ضد المسلمين. لمزيد من التفاصيل ينظر: يوسف أشياخ تاريخ الأندلس، ص ٦٨.
(٢٦١) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٣، ص ٢٨١.
(٢٦٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٣، ص ٢٨٠.
(٢٦٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٤.
(٢٦٤) ابن بسام: الزخيرة، ق٣، ج١، ص ٢٥؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج٣، ص ١٩٤.
(٢٦٥) المقري: نفح الطيب، ج٣، ص٤٥٣.

التي حلت بجيرانه، فقد أفصح عن هذه الخطط وتلك النيات حينما قال لرسول المعتمد بن عباد لما قدم إليه: " كيف أترك قوماً مجانين تسمي كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم،...، وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني والعيدان!، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحداً، وأن يدعها بين أيديهم سدى؟! "(٢٦٦).

هذا الواقع السياسي دفع بالعديد من ملوك الطوائف أن يقدموا رهائن للممالك النصرانية.

القادر يحذر برهن أبناء طليطلة لألفونسو السادس:

تعتبر مملكة بني ذي النون في طليطلة من أكبر دول الطوائف في الأندلس، فهي تحكم مدينة طليطلة صاحبة الموقع الاستراتيجي على مشارف الأندلس الشمالية والوسطي وتعتبر حاجز الدولة الإسلامية وجناحها الشمالي الأوسط، ضد عدوان النصارى، وكانت هذه المملكة تشمل رقعة كبيرة في قلب الأندلس تمتد شرقي مملكة بطليوس من قورية وتَرجالُه نحو الشمال الشرقي حتى قلعة أيوب وشنتمرية الشرق جنوب غربي مملكة بني هود في الثغر الأعلى وتمتد شمالا بشرق فيما وراء نهر التاجُه متاخمة لقشتالة القديمة وجنوباً بغرب حتى حدود مملكة قرطبة عند مدينتي المعدن والمدور وتتوسطها عاصمتها طليطلة، ومن أعمالها مدينة سالم ووادي الحجارة وقونقة ووبذة وإقليش ومورة وطلبيرة وترجالُه، وكانت هذه المنطقة الشاسعة الهامة

(٢٦٦) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٨٩.

وقت الفتنة غنماً لبني ذي النون(٢٦٧)، أقاموا بها مملكة لامعة زاهية ولكن سيئة الطالع قصيرة الأمد(٢٦٨). وتولي إسماعيل بن ذي النون حكم طليطلة وأعمالها، وتلقب بالظافر سنة (٤٢٧هـ /١٠٣٥م)، ولم يطل أمد إسماعيل في الملك أكثر من بضعة أعوام، إذ توفي في سنة (٤٣٥ هـ/١٠٤٣م)، فخلفه ولده يحيي بن إسماعيل وتلقب بالمأمون وسار على سنة أبيه في تقديم الوزير ابن الحديدي، والاعتماد على رأيه في مهام الشئون وفي عهد المأمون اتسعت حدود مملكة طليطلة وترامت شرقاً حتى بلنسية وأضحت من أعظم دول الطوائف، واستطال عهد المأمون الذي دام ثلاثة وثلاثين عاماً، والذي كان في الوقت نفسه مليئاً بالحروب والخصومات التي اضطرمت بين المأمون وبين منافسيه القويين ابن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى، وابن عباد صاحب إشبيلية، واستعانوا فيها بنصاري الشمال وحصل النصارى في مقابل ذلك على الجزية والعديد من التحف والهدايا(٢٦٩).

وبعد وفاة فرناندو ملك قشتالة سنة (١٠٦٥) وثارت بين أولاده الثلاثة سانشو ملك قشتالة، وألفونسو ملك ليون، وغرسية ملك جليقية، حرب أهلية استمرت أعواماً، وانتهت مرحلتها الأولي في سنة ١٠٧١ م، بانتصار سانشو واغتصابه ملك أخويه، والتجأ غرسية إلى حماية ابن عباد ملك إشبيلية، والتجأ ألفونسو إلى حماية المأمون بن ذي النون، وعاش في بلاط طليطلة

(٢٦٧) كانت طليطلة حينما اضطرمت الفتنة وانهار سلطان الحكومة المركزية، قد قام بالأمر فيها وضبطها قاضيها أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدي. و أنه لم يكن منفرداً بالرياسة، وأنه كان يحكم معه جماعة من الرؤساء على نحو ما كانت الجماعة في بدايتها بقرطبة، وكان من هؤلاء ابن مسرّة، وعبد الرحمن ابن متيوه. ثم وقع الخلاف بين الجماعة، وعزل القاضي ابن يعيش، وسار إلى قلعة أيوب وتوفي بها في سنة (٤١٨هـ/١٠٢٧م) ولما توفي عبد الرحمن بن متيوه، خلفه في الحكم ولده عبد الملك وأساء السيرة واضطربت الأمور فرأي أهل طليطلة أن يتخلصوا من أولئك الزعماء جملة، وبعثوا رسلهم إلى عبد الرحمن ابن ذي النون في شنتبرية يستدعونه لتولي الرياسة، فوجه إليهم ولده إسماعيل، وكان ذلك في سنة (٤٢٧هـ/١٠٣٥م)، وتولي إسماعيل بن ذي النون حكم طليطلة وأعمالها، وتلقب بالظافر وامتدت رياسته شرقاً حتى قونقة وجنجالة، واعتمد في تدبير الأمور على كبير الجماعة بطليطلة أبي بكر بن الحديدي، وكان عالماً وافر العقل والدهاء، يحظي بتأييد الكثرة الغالبة من أهل المدينة، فكان إسماعيل لا يقطع أمراً دون رأيه ومشورته. عبد الله عنان: دولة الإسلام،ج٣، ص٩٤، ٩٥.

(٢٦٨) عبد الله عنان: دولة الإسلام،ج٣، ص٩٤، ٩٥.

(٢٦٩)ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ٧٧ .

زهاء تسعة أشهر معززاً مكرماً، حتى توفي أخوه سانشو قتيلا تحت أسوار سمورة، حينما أراد انتزاعها من يد أخته أوراكا فغادر طليطلة إلى ليون واسترد عرشه وأما ألفونسو فقد استطاع خلال إقامته بطليطلة في ضيافة المأمون أن يدرس أحوالها وأحوال بلاطها ومواطن ضعفها، وأن يستغل ذلك فيما بعد في تدبير القضاء على مملكة المحسن إليه.

ولم يلبث المأمون طويلا حيث توفي سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٤م)، وخلف حفيده يحيي بن ذي النون الملقب بالقادر (٤٦٧-٤٧٨هـ/١٠٧٤- ١٠٨٥) الذي كان فتي حدثاً قليل الخبرة والتجارب ربي في أحجار النساء ونشأ بين الخصيان والغانيات فملك أمره العبيد والموالي، فطمع في بلاده الرؤساء وأحتقره القرناء والغرباء[٢٧٠]، فكان المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود (٤٤١- ٤٧٤هـ/١٠٤٩- ١٠٨١م) صاحب سرقسطة يرهقه بمطالبه وغاراته واستعان عليه بملك أرجون وانتزع منه مدينة شنتبرية[٢٧١]، ومن جهة أخرى فقد ثار أبو بكر بن عبد العزيز[٢٧٢] ببلنسية وخلع طاعة بني ذي النون، ونادي بنفسه أميراً مستقلا[٢٧٣]، وقامت الثورات العارمة في مدينة طليطلة وقتل فيها الفقيه أبو بكر الحديدي[٢٧٤]، وانتهبت دور

(٢٧٠) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٨٠، ٨١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص١١٠.

(٢٧١) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٧٩، ٨٠.

(٢٧٢) أبو بكر بن عبد العزيز: هو أبو بكر بن محمد بن موان بن عبد العزيز القرطبي، كان أبوه أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز المشهور بابن روبش وزيراً للأمير عبد العزيز العامري صاحب بلنسيه ثم وزيراً لابنه من بعده عبد الملك المظفر بن عبد العزيز، وبعد وفاة هذا الوزير سنة (٤٥٦هـ/ خلفه في الوزارة ابنه أبو بكر بن عبد العزيز فلم يمكث في منصبه طويلاً حتى سقطت بلنسيه في يد المأمون الذي أقره في منصبه ثم عينه نائباً عنه في حكم المدينة بعد أن عزل أميرها عبد الملك المظفر وأن الوزير أبو بكر إستمر يحكم بلنسيه باسم بني ذي النون إلى أن مات المأمون سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٥م)، فأنتهز هذه الفرصة وخلع طاعة خليفته القادر بن ذي النون ونادي بنفسه أميراً مستقلاً وتحالف مع المستعين بن هود صاحب سرقسطة وزوجه ابنته، وظل يحكم الوزير أبو بكر بن عبد العزيز بلنسية إلى أن توفي سنة (٤٨٧هـ/١٠٨٥م). ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، هامش ص٨٠، ٨١.

(٢٧٣) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٨٠، ٨١.

(٢٧٤) أبو بكر الحديدي: هو كبير الجماعة بطليطلي منذ أيام ملكها إسماعيل الظافر بن ذي النون الذي كان لا يقطع أمراً دون إستشارته، وبعد وفاة إسماعيل الظافر سنة (٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م) سار ولده المأمون على سياسته في تقديم وزيره ابن الحديدي والإعتماد على رأيه ومشورته وبعد وفاة المأمون سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٥م) خلفه حفيده يحيي القادر فألتف حوله نصحاء السوء وأقنعوه بضرورة التخلص من ابن الحديدي كي يخلو له الجو في جميع أعماله وتصرفاته، وابن الكردبوس يجعل مقتل ابن الحديدي في خلال ثورة عارمة قام بها العامة ضد أعيان المدينة لدرجة أن اقادر استنجد بالملك ألفونسو السادس، أما المصادر

الأعيان وذلك سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٦م)، فاستنجد القادر ابن ذي النون بالملك القشتالي ألفونسو السادس (٤٦٥-٥٠٢هـ/١٠٧٢-١١٠٩م) لقمع هذه الثورات التي ظهرت ضده فطلب منه الملك القشتالي أن يمده بالمال مقابل نجدته، فجمع القادر الرعية وقال لهم " أقسم لئن لم تحضروني هذا المال الذي طلب في الحين ن لأجعلن عنده رهناً جميع من عندكم من العيال والبنين"(٢٧٥) .

ولما سمع أهل طليطلة ما قاله القادر لم يجبه أحد منه بحرف غير أبي شجاع ابن لبون(٢٧٦) فقد أنكر عليه هذا العمل وقال له: " لقد خلعت نفسك بما قلت، وربما أزعمت عليه وعولت"، ففسدت نفس الجماعة وروا أنه لا تجب له عليهم طاعة، وبعد هذا الموقف ثار أهل طليطلة ضد القادر سنة (٤٧٢هـ/١٠٧٩م) حيث كاتبوا ابن الأفطس(٢٧٧) ففر القادر من تلك المدينة لما أحس بالخطر إلى مدينة وبذة(٢٧٨)، وأصبح أهل طليطلة أنفسهم بلا أمير ولا حكومة تقي المدينة شر الفوضى فرأي الجماعة منهم أن يستدعوا المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس ليتولى أمرهم وقبل المتوكل هذه المهمة كارهاً وقدم إلى طليطلة وقام بالأمر فيها.

فكان قسم القادر بأخذ أبناء طليطلة رهائن لألفونسو السادس إذا لم يجمعوا له المال كان سبباً في خلعه من حكم مدينة طليطلة.

العربية الأخرى تشير بوضوح إلى أن القادر هو الذي دبر مؤامرة لقتل ابن الحديدي سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٦م). ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، هامش ص٨١.

(٢٧٥) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٨٢.

(٢٧٦) أبي شجاع بن لبون: هو أبو شجاع أرقم بن لبون، ينتمي إلى أسرة بني لبون من المولدين، تولي قيادة مدينة وبذة، توفي شهيداً سنة (٤٨١هـ/). ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص ١٩٩؛ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص ٩٨.

(٢٧٧) ابن الأفطس: هو عمر المتوكل بن الأفطس الذي حكم غرب الأندلس سنة (٤٦٤هـ/١٠٧٢م) وأنتهت حياته بالقتل على يد المرابطين سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٤م) بعد أن ثبتت لهم خيانته واتصاله سراً بالعدو. ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٨٣.

(٢٧٨) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٨٢.

القادر يرهن حصون سرية وقورية وقنالش لأفونسو السادس:

أسرع القادر بن ذي النون وكتب إلى ألفونسو ملك قشتالة يذكره بسالف الود بينه وبين جده المأمون وما كان للمأمون من فضل في عونه وإغاثته ويطلب منه العون في محنته فاستجاب ألفونسو لدعوته، وتلقاه القادر واتفقا على محاصرة طليطلة حتى يخرج منها ابن الأفطس ويصرفها إليه على أن يجعل جميع أموالها في يديه، وأن يأخذ حصن سرية، وحصن قورية(٢٧٩) رهنا فأعطاهما له، فأدخل فيهما ألفونسو قواته وحصنهما أشد تحصين(٢٨٠)، ولم يرجع الفونسو الحصنين المرهونتين للقادر، وذلك لأن الفونسو شد من حضانة الحصنين، وهذا يؤكد لنا أيضا أن الفونسو كان لدية كامل الرغبة في أخذ الحصنين سواء كان مبطناً ذلك عن القادر أو مظهرا له.

وحاصر ألفونسو مدينة طليطلة أشد حصار فلما رأي ابن الأفطس ضيق الحال عليه غادر طليطلة مسرعاً إلى حاضرته سنة(٤٧٤هـ/١٠٨١م) وذلك بعد أن قضي في حكمها زهاء عشرة أشهر، فدخلها القادر واستأصل جميع أموالها فلم يقبلها ألفونسو السادس منه فأحضر جميع ما

(٢٧٩) حصن قورية: بالضم ثم السكون والراء مكسورة وياء خفيفة يقع بنواحي مدينة ماردة جنوبي جبل الشارة،، وهو أحصن المعاقل. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٤، ص٤٤١٢ الحميرى: الروض المعطار، ص ٤٤٨٥ شيت خطاب: قادة فتح الأندلس، ج١،ص ٧٤.

(٢٨٠) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٨٣.

كان عنده من نفيس الذخائر الموروثة عن أبيه وجده فلم يفِ بما قاطَعَه عليه فأخذ منه حصن قنالش (٢٨١) رهناً (٢٨٢).

وتولد عن هذا الأمر كره شديد من أهل طليطلة لحاكمهم القادر فمنهم من فر سراً إلى حكم ابن هود وبقي تحت نظره ومنهم من فر إلى حصن مجريط وتحصنوا به معلنين خلعهم للقادر واستقلالهم بالحكم (٢٨٣).

ألفونسو السادس يشترط اتخاذ رهائن للاستيلاء على مدينة طليطلة:

أصبح الخلل الداخلي في مدينة طليطلة بالإضافة إلى ضعف القادر مدعاة لكل الأمراء الطامعين في الحصول على أجزاء من مملكة طليطلة، فشن ابن عباد الغارات عليها من ناحية الغرب، وركز ابن هود هجومه على مملكة طليطلة من ناحية الشرق (٢٨٤).

وعندما تحقق للقادر أنه لا طاقة له على الدفاع عن ملكه كتب إلى ألفونسو السادس متخليا له عن حكم طليطلة مقابل أن يمكنه من بلنسية وأحوازها مقابل تسلمه طليطلة (٢٨٥)، وفي ونهاية

(٢٨١) حصن قنالش: يقع في شمال شرق طليطلة في منطقة وادي الحجارة على الحدود القشتالية. ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، هامش ص٨٣، ٨٤.
(٢٨٢) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٨٣. الأمير عبدالله: التبيان، ص٧٧.
(٢٨٣) ابن بسام: الزخيرة، ق٤ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٨٤.
(٢٨٤) الحميدى: جذوة المقتبس، ص٢٩؛ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٨٤.
(٢٨٥) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٨٥؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص٤٣٩؛ ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص ١٣؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص٣٥٢.

الأمر سقطت مدينة طليطلة بعد حصار دام أكثر من تسعة أشهر في يد ألفونسو وذلك بعد أن اتفق مع أهالي طليطلة على العديد من الأمور هي:

- أن يؤمن أهل طليطلة على أنفسهم وبينهم وأموالهم.
- عدم منع من أراد الخروج من طليطلة وللخارج اخذ أمواله معه.
- عدم إلزام من بقي بطليطلة سوي بالجزية المقررة عليه وعلى من عنده من الأشخاص.
- من أراد العودة بعد خروجه فله ما كان بيده من عقار دون تعرض له.
- تسليم المدينة لألفونسو.
- يحتفظ المسلمون المقيمون بطليطلة بتطبيق شريعتهم ونظمهم وتقاليدهم والاحتكام إلى قضاتهم.
- احتفاظ المسلمين بمسجد طليطلة الجامع.
- يؤدي المسلمون ما كانوا يؤدونه من ضرائب إلى ملك قشتالة.
- أن يقدم أهل طليطلة عدداً من أعيانهم كرهائن.

وبهذه الشروط تم أداء اليمين من قبل ألفونسو ووافق أهل طليطلة على التسليم (٢٨٦)

وبهذا سقطت مدينة طليطلة بيد النصارى في سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) وكان سقوط طليطلة لعدة عوامل أهمها فقر أهلها وضعف الجانب الاقتصادي لديهم وتشتت أمر المسلمين في طليطلة خاصة وفي الأندلس عامة بالإضافة لضعف حاكمها القادر وهذه العوامل كلها يسرت وقوع طليطلة بيد ألفونسو دون مشقة والغريب في الأمر هو حرص ألفونسو السادس على اتخاذ رهائن من أعيان المدينة وذلك حتى لا يواجه أي مقاومة في المدينة.

(٢٨٦) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص٨٥؛ الأمير عبد الله: التبيان، ص٧٧؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٣، ص ١١٣-١١٤.

المعتمد بن عباد وتبادل الرهائن مع الكونت ريمون بيرنجير الثاني ملك برشلونة:

تمكن فرديناند الأول ملك قشتالة من فرض الجزية على العديد من دول ملوك الطوائف، حيث فرضها على بطليوس وسرقسطة وطليطلة وفرضها على إشبيلية سنة (٤٥٥هـ/١٠٣٦م) وعلي عهد المعتضد الذي استمر في دفعها حتى وفاته سنة (٤٦٤هـ/١٠٧١م) (٢٨٧)، وخلفه على الحكم ابنه المعتمد بن عباد (٤٦٤-٤٨٤هـ/ ١٠٧١-١٠٩١م) وفي الوقت الذي كان فيه المعتمد بن عباد يعمل على توطيد حكمه في إشبيلية وأنحائها، تمكن ألفونسو السادس من توحيد مملكة قشتالة وليون وجليقية تحت سلطانه، وفي عهد المعتمد كان يفد على إشبيلية سفارتين قشتاليتين، الأولي لأخذ الهدايا والعطايا، والثانية لأخذ الجزية، ويرد عليهما المعتمد بسفارتين مماثلتين (٢٨٨).

وفي هذا الوقت كان ملوك الطوائف يتسابقون في عقد الاتفاقيات مع ألفونسو السادس، فقد عقد ملك غرناطة معاهدة صداقة مع ألفونسو السادس، ووثق علاقته به ضد المعتمد بن عباد، وفي أعقاب هذه المعاهدة أسرع المعتمد بن عباد إلى عقد اتفاقية صداقة وتعاون مماثلة مع ألفونسو السادس ضد مملكة غرناطة وقد أرسل المعتمد بن عباد سفارة إلى ملك قشتالة وليون برئاسة ابن عمار، ووقعت اتفاقية بين الطرفين كان أهم ما جاء بها: أن تستمر مملكة إشبيلية بدفع الجزية السنوية وتقدر بخمسين ألف دينار لألفونسو السادس، وأن يقدم ألفونسو

(٢٨٧) ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٢٠٣؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٣، ص ٤٨؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم، ص٢٣٠.
(٢٨٨) ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ٢٠٣؛

السادس المساعدة للمعتمد لفتح غرناطة على أن تكون أموالها لألفونسو والمدينة لابن عباد، وعلي أثر الاتفاق بدأ النصارى بالإغارة على غرناطة، ولكن ألفونسو السادس فشل في الاستيلاء على غرناطة وعقد اتفاقا مع ملكها(٢٨٩)، ونظراً لحصانة أسوار غرناطة فشلت جيوش المعتمد وألفونسو السادس في الاستيلاء عليها، وعقُد بين ملكها عبد الله بن بلقين وألفونسو السادس اتفاقا ينص على ما يلي:-

أن يدافع ألفونسو عن غرناطة إذا تعرضت لأي خطر خارجي، وأن تدفع غرناطة جزية سنوية لألفونسو السادس قيمتها خمسين ألف مثقال من الذهب ثم خفضت إلى أن أصبحت ثلاثين ألف مثقال، كما عمل ألفونسو على إنهاء الخلافات بين المعتمد بن عباد وعبد الله بن بلقين وعقُد اتفاق بين الجانبين، والواقع أن ألفونسو السادس كان يهدف من تقديم المساعدة للمعتمد ضد غرناطة في الوقت الذي وقع فيه اتفاقية صداقة مع عبد الله بن بلقين هو الحصول على الجزية من كلا الجانبين، وهذا ما حدث فعلاً، فمن هذا الصراع بين غرناطة وإشبيلية خرج ألفونسو منتصراً فقد حصل على جزية سنوية من غرناطة قدرت بحوالي ثلاثين ألف مثقال من الذهب، كما ضاعف الجزية على مملكة إشبيلية مقابل مساعدته لها والتي وصلت لخمسين ألف دينار(٢٩٠).

فألفونسو السادس أرد أن يضع حداً لأطماع ملك إشبيلية الذي كان يريد توسيع مملكته على حساب جيرانه ملوك الطوائف، وهذا يتعارض مع سياسة ألفونسو السادس التي تهدف إلى إضعاف الجميع وضربهم ببعض وإطالة أمد الصراع فيما بينهم لتسهل السيطرة عليهم فيما

(٢٨٩) مذكرات الأمير عبد الله: التبيان، ص ٧١-٧٤.
(٢٩٠) مذكرات الأمير عبد الله: التبيان، ص ٧٤، ٧٥.

بعد[٢٩١]، وتؤكد هذه السياسة الحروب التي جرت بين غرناطة وإشبيلية فيما بعد، وكان ألفونسو السادس مسئولاً عن استمرارها، فقد أمد الطرفين بالمال والمساعدات بموجب الاتفاقيات التي بينهم[٢٩٢]، ولم يكتفِ المعتمد بطلب المساعدة من ألفونسو السادس ضد مملكة غرناطة بل أرسل سفارة برئاسة وزيره بن عمار إلى الكونت ريمون بيرنجير الثاني ملك برشلونة، وعقد ابن عمار ملك برشلونة اتفاقاً على أساس أن يدفع له المعتمد عشرة ألاف مثقال من الذهب مقابل معاونته لفتح مرسيه ومساعدته في حروبه ضد غرناطة[٢٩٣]، ولضمان الثقة بين الطرفين قدم كل منهما رهينة للأخر، فقدم المعتمد بن عباد ابنه الرشيد رهينة لملك برشلونة الذي قدم ابن أخيه رهينة للمعتمد[٢٩٤]، وبدأت بعدها قوات المعتمد بن عباد بقيادة وزيره ابن عمار، وملك برشلونة بحاصرة مدينة مرسيه ولكن المعتمد تأخر في دفع المال المطلوب منه، فاعتقد ريمون بيرنجير أن المعتمد غرر به، فقبض على وزيره بن عمار ووزيره الرشيد، وترك محاصرة مدينة مرسيه، فأضطر المعتمد إلى دفع المال وإرسال رهينة الكونت بعد مفاوضات طويلة وتم الإفراج عن ابن عمار والرشيد وأخفقت هذه الحملة الأولي في فتح مدينة مرسيه [٢٩٥].

(٢٩١) رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية، ص٣٦٤، ٣٨٥، ٣٨٨.
(٢٩٢) مذكرات الأمير عبد الله: التبيان، ص٧١.
(٢٩٣) يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس، ص٥١.
(٢٩٤) رينهارت دوزى: المسلمون في الأندلس، ج٣، ص ١١١؛ يوسف أشياخ: تاريخ الأندلس، ص٥١.
(٢٩٥) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١٦٠؛ رينهارت دوزى: المسلمون في الأندلس، ج٣، ص ١١١، ١١٢؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ص.

جنود ألفونسو السادس رهائن عند المعتمد بن عباد:

كانت العلاقات القائمة بين مملكة إشبيلية ومملكة قشتالة سلمية بشرط أن يبقي المعتمد بن عباد خاضعا لسيطرة ألفونسو السادس ودافعاً للجزية السنوية ملبياً لمطالبه، وكان المعتمد يقضي حياته في اللهو والترف وحب النساء والجواري (٢٩٦)، وقد استغل ألفونسو ذلك أحسن استغلال فأراد مضاعفة الجزية على المعتمد وإرغامه على دفعها فكان يقوم بالإغارة على أراضي مملكة إشبيلية وإحراق قراها، وفي كل مرة كان المعتمد يرسل وزيره ابن عمار لمفاوضته، وكان ابن عمار يفشل أحياناً في مهمته، ويضطر المعتمد لدفع الجزية المضاعفة (٢٩٧) والذي أدي إلى توتر العلاقات بينهم، تلك السفارة الأخيرة التي أرسلها ألفونسو السادس إلى المعتمد بن عباد عقب سقوط طليطلة في يديه سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، حيث أرسل وزيره ابن شاليب اليهودي ومعه خمسمائة فارس عسكروا خارج مدينة إشبيلية وطلبوا الجزية من المعتمد، فأرسل إليهم المعتمد بعض أشياخ إشبيلية ومنهم الوزير ابن زيدون وأرسل معهم بعض الأموال فرفضها بن شاليب لأنها من معدن غير نقى، وهدد ابن شاليب المعتمد بأنه إذا لم يأخذ المال من معدن نقي فإن ألفونسو السادس سوف يهاجم مدينته، وتذكر الروايات أن تشدد ابن شاليب في طلبه كان سبب غضب المعتمد بن عباد وقتل الوزير اليهودي، حيث أن ابن شاليب زاد في طلباته، فعدا عن الجزية فطلب من المعتمد بن عباد التخلي عن بعض

(٢٩٦) رينهارت دوزى: المسلمون في الأندلس، ج٣، ص١٠١.
(٢٩٧) رجب عبد الحليم: العلاقات، ص٤٣٦.

الحصون والقلاع المحيطة بإشبيلية لألفونسو السادس، فرفض المعتمد بن عباد وقام بإلقاء القبض على ابن شاليب والفرسان القشتاليين وأمر بصلب ابن شاليب، وألقي بالفرسان بالسجن، وعندما علم ألفونسو السادس بما حصل لوزيره وفرسانه القشتاليين، أرسل إلى المعتمد يطلب منه إطلاق سراح فرسانه، فأشترط المعتمد لذلك تخلي ألفونسو السادس عن حصن المدور(٢٩٨).

فوافق ألفونسو، ولكنه توعد بالرد فجهز جيوشه من القشتاليين والبشكنس وبدأ بالهجوم على أحواز باجة حتى وصل إشبيلية فكان يحرق وينهب ويسبي كل ما يقع تحت يديه، وبقي ألفونسو السادس في أحواز إشبيلية لمدة ثلاثة أيام، وكتب إلى المُعْتَمِد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب، ولم يتحمل المُعْتَمِد هذه الإهانة فردَّ: "قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك, وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك"(٢٩٩) وتحرك المعتمد للاستعانة بالمرابطين (٣٠٠) وقال مقولته رعي الجمال خير من رعي الخنازير (٣٠١).

كان قيام المعتمد بن عباد باحتجاز جنود ألفونسو السادس رهائن عنده سبباً مباشراً لقيام ألفونسو السادس بغزوه، فلجا المعتمد للاستعانة بالمرابطين.

(٢٩٨) عبد الله بلقين: التبيان، ص١٠١، ١٠٢؛ ابن اخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٤٤، ٢٤٥؛ المراكشي: الحلل الموشية، ص ٤٢؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٣، ص٧٣.

(٢٩٩) الحميرى: الروض المعطار، ص٢٨٨؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص ٣٥٨.

(٣٠٠) المرابطين: يرجع تأسيس الدولة المرابطية قبيلة لمتونة، وهي إحدى بطون قبيلة صنهاجة البرانس، وعرف أتباع الدولة المرابطية بالمرابطين نسبة إلى رباط عبد الله بن ياسين، وعرفوا كذلك بالملثمين. البكرى: المغرب، ص ١٦٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج٤، ص٧

(٣٠١) المراكشى: الحلل المواشية، ص ٤٥؛ السلاوى: الإستقصا، ج٢، ص ٣٩؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص ٣٥٩؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٣، ص٣١٧.

المعتمد بن عباد وفكرة أخذ رهائن من يوسف بن تاشفين:

في أعقابِ سقوطِ طليطلة بيد ألفونسو السادس (٤٧٩هـ/١٠٨٥م) اتفقَ فقهاءُ الأندلس وعلماؤها إلى ضرورةِ الاستنجادِ بالمرابطين، و تزعم المعتمد بن عباد هذا الأمر، وأرسل رسالة إلى يوسف بن تاشفين حملها وزيره ابن زيدون وقد بين المعتمد بن عباد مدي الضعفِ الذي وصل إليه حال الإسلام والمسلمين، وزيادة نفوذ وغطرسة ألفونسو السادس وسيطرته على طليطلة وإغارته على كافة حصون المسلمين، وعدم مقدرة مملكة إشبيلية وملوك الطوائف على مقاومة الممالك النصرانية في الشمال، فطلب المعتمد من يوسف بن تاشفين العبور إلى الأندلس ليخلِّص الإسلامَ والمسلمينَ من عدوهم(٣٠٢).

وعبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) (٣٠٣) وألتقي مع النصارى في موقعة الزلاقة ونجح في الانتصار عليهم وذلك يوم الجمعة (١٢ رجب سنة٤٧٩هـ/٢٣ أكتوبر سنة١٠٨٦م)، وغنم المسلمون غنيمةً عظيمةً، وذلك في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وعفّ يوسف عَن الغنائم، وآثر بها ملوك الأندلس ليتمّ لَهُ الأجر، فأحبوه وشكروا لَهُ، وكانت ملحمةً عظيمةٍ قَلَّ أنْ وقع في الإسلام مثلها، وجرح فيها ملك الفرنجة، وجمعت رؤوس الفرنجة، فكانت كالتّلّ العظيم (٣٠٤).

(٣٠٢) المراكشي: الحلل الموشية، ص٤٦؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٣، ص؛ دوذى: المسلمون في الأندلس، ج٣، ص١٣٠، ١٣١.

(٣٠٣) مذكرات الأمير عبد الله: التبيان، ص١٠٢؛ المراكشي: الحلل الموشية، ص٤٦؛ دوذى: المسلمون في الأندلس، ج٣، ص١٣١.

(٣٠٤) لمزيد من التفاصيل عن موقعة الزلاقة انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ٤٤٥- ٤٤٨؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص٢٤٦؛ عبد الله عنان: ولة الإسلام، ج٣، ص٣٢٠-٣٣٢؛ الصلابى: المرابطين، ص.

وعزم ابن عَبّاد على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أنّ ينزل في ضيافته، فأجابه، فأنزله في قصوره على نهر إشبيلية، فرأي أماكن نزهة، كثيرة الخير والحُسْن والرّزْق، وبالغ المعتمد بْن عَبّاد وأولاده في خدمته، وكان رجلًا بربريا قليل التّنعُّم والتّلذُّذ والرّفاهية فرأي ما هاله من الحشمة والفرش والأطعمة الفاخرة فأقبل خواصّه عَلَيْهِ ينبهونه على تِلْكَ الهيئة ويحسنونها، ويقولون: ينبغي أنّ تتخذ ببلادك نحو هذا فأنكر عليهم وكان قد دخل في الشيخوخة وفنيت إرادته وأدمن على عيش بلاده، ثمّ أخذ يعيب طريقة المعتمد وتنعمه المُفْرِط، وقال: مَن يتعاين هذه اللّذات لا يمكن أنّ يعدل كما ينبغي أبدًا ومن كان هذا همته متي تشحذ في حفظ بلاده ورعيته! ثمّ سأل يوسف: هَلْ يفعل المعتمد هذا التنعم في كلّ أوقاته؟ فقيل لَهُ: بل كلّ زمانه على هذا فسكت، وأقام عنده أيّامًا فأتي المعتمد رجلٌ عاقل ناصح نفحّوفه من غائلة ابن تاشَفِين وأشار عَلَيْهِ بأن يقبض عَلَيْهِ وأن لا يُطْلقه حتى يأمر كلَّ من بالأندلس من عسكره أنّ يرجع من حيث جاء، ثمّ تتّفق أنت وملوك الأندلس على حراسة البحر من كل سفينة تجري لَهُ، ثمّ تتوثق منه بالأَيْمان أن لا يغدر، ثمّ تُطْلِقه وتأخذ منه على ذَلِكَ رهائن، فأصغي المعتمد إلى مقالته واستصوبها، وبقي يفكّر في انتهاز الفرصة، وكان لَهُ نُدَماء قد انهمكوا معه في اللّذّات، فقال أحدهم لهذا الرجل: ما كَانَ أمير المؤمنين، وهو إمامُ أهل المَكْرُمات ممّن يُعامل بالحَيْف ويغدر بالضَّيْف، قَالَ: إنّما الغَدْر أَخْذُ الحقّ ممّن هُوَ لَهُ، لا دفْع المرء عَنْ نفسه، قَالَ النّديم: بل كَظْمٌ مَعَ وفاءٍ خيرٌ من حزْمٍ مَعَ جفاء، ثمّ إنّ ذَلِكَ النّاصح استدرك الأمر وتلافاه، وشكر لَهُ المعتمد وأجازه، فبلغ الخبرُ ابن تاشَفِين فأصبح غاديا فقدَّم لَهُ المعتمد هدايا عظيمة فقبِلَها وعبر إلى سَبْتَة وبقي جُلُّ عسكره بالجزيرة يستريحون(٣٠٥).

(٣٠٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣٤، ص ٣٣٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٩، ص٧٦؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص ٣٧٦، ٣٧٧.

ولو أن المعتمد بن عباد أخذ رهائن من يوسف بن تاسفين لعجل بسقوط الأندلس في يد النصارى.